سلمى الحاجي

الجدار

رواية

مع قراءة للأستاذ حمادي القسطيني

أ/سلمى اليانقي

الجـــدار

رواية

شخصيّات وأحداث هذه الرّواية لا تمتّ للواقع بصلة..
وأيّ تشابه في الأسماء سيكون من قبيل الصّدفة المحضة..

الإهداء

إلى روح الزّعيم الفلسطينيّ "أبي عمّار"

إلـى أرواح كـلّ الشـهداء الفلسـطينيين الّـذين سـهروا اللّيـل وحاربوا بالنّهار وضحّوا بأنفسهم من أجل أن تسمو عزّة وطننا فوق كلّ اعتبار

إلـى كـلّ عربـيّ سـاند القضـيّة بقطـرة حبـر، بلحـن أغنيـة، بصيحة استنكار

من أجل أن نمحي هذا الدّمار

من أجل غد نعيش فيه بلا حصار

من أجل الانتصار

وقفة إجلال

إلى من آمن بموهبتي وبكتاباتي،

إلى من شجّعني وساهم في رسم الطّريق لقلمي،

إلى من كان وسيظلّ قدوتي في درب التّميّز،

إلى من تمنّيتُ حقّا لو أبدى رأيه في ثالث إصداراتي،

أقول:

سأفعل ما في وسعي حتّى أكون بإذن الله كما أردتَ أن تراني

إلى روح عمّي الطّاهرة

سلمى

I

فرغت زينب من أداء صلاة المغرب فجلست كعادتها على السّجّاد وفتحت كفّيها وأخذت تبتهل إلى الله وتدعوه دعاءها المعتاد وترجوه أن يمنّ عليها بمولود يملأ عليها حياتها الخالية إلاّ من الخوف والرّعب وصوت الطّلقات والقنابل الّذي باتت أذنها تألف سماعه.

كانت زينب امرأة في مقتبل العمر، جاوزت الثّلاثين ببضع سنوات، مالت بشرتها إلى السّمرة وشعرها إلى السّواد، كانت ذات وجه مستدير وعينين دعجاوين وقامة متوسّطة، وكانت بدينة وقويّة السّاعد.

مرّ على زواج زينب من عبد السّلام أكثر من خمس سنوات ولم يرزقهما الله طيلة هذه المدّة بالولد. ورغم حرص عبد السّلام على إخفاء قلقه عنها إلاّ أنّ هذا العقم بات يحيّر زينب ويتعبها حتّى لم يعد يُغْمَض لها جفن. وكلّما فتحت الموضوع كان عبد السّلام هو مَن يحاول إغلاقه بشتّى الوسائل والطّرق، كان يتحجّج لها بأنّ حكمة الله أبت أن يكون لهما ابن يعيش في تلك الظّروف الّتي لا ترحم أحدا وتخطف الصّغير قبل الكبير.. كان يقول لها: «أ ليس هذا أفضل من أن ننجب طفلا ثمّ تأتي البنادق والرّشّاشات لتخطفه من أمام أعيننا؟..» ولم تكن المسكينة تقتنع بحديث زوجها، كانت تقول في نفسها أنّ الله لو رزقها مولودا ستحافظ عليه أكثر من نفسها، ستضعه في عينيها وتغمض عليه جفنيها حتّى لا تطوله رصاصة ولا تصل إليه يد من أيدي العدوّ البغيضة.

لم تكن زينب جاحدة بِنِعَم الله بل ظلّت تحمده في صبر ليلا نهارا وما أقضّ مضجعها لم يكن في الحقيقة رغبتها في الإنجاب بقدر ما كان الحبّ الّذي تكنّه لزوجها وهي أدرى النّاس بولعه بالأطفال فكانت تعرف أنّه يختلق حججا هي بالكاد القناع الّذي ترتسم عليه اللاّمبالاة ويختفي وراءه الخوف من غد مجهول. كانت تعلم أنّه لا يرغب في تعكير صفو حياتهما

بهذه المواضيع الّتي كان هو يعتبرها قضاءً وقدرا وعليه أن يرضى به، وكانت هي تعتبرها مسألة بأيديهما حسمها إن عاجلا أو آجلا، حتّى أنّ رغبتها الملحّة في إسعاده دفعتها يوما إلى دعوته للزّواج من أخرى.. ليلتها استشاط غضبا وصاح كما لم يفعل من قبل "ومن أدراك أنّي مسكون بهاجس الوريث؟ أنا مرتاح هكذا.. ألا تفهمين؟" ربّما كان غضبه ذاك نتيجة عاديّة لصراع داخلي كان يجتاحه.. صراع بين حبّه لزوجته ورغبته الّتي حاول كثيرا دفنها.. رغبته في أن يكون له ولد..

طوت زينب السّجّاد ووضعته على الكرسيّ ولسانها ما يزال يلهج ببعض ما تبقّى من الأدعية الّتي تحفظها عن ظهر قلب.. كان لسانها يردّد الدّعاء وتفكيرها يسرح بعيدا.. تذكّرت ما دار صباحا بينها وبين عبد السّلام من جدال..

- لقد قرّرتُ أمرا مهمّا..
- خيرا إن شاء الله..
- قرّرتُ أن أُنْهيَ موضوع عقمي..
- ألم تنسيْ هذا الموضوع بعدُ؟ حرام عليكِ ما تفعلينه بنفسكِ يا امرأة.. كم مرّة قُلتُ لكِ أنّها مسألة بِيَد القدير وحده، إن شاء رزقنا وإن شاء حرمنا.. هذه حكمته ولا اعتراض..
- ولا اعتراض على أمر الله.. أعرف هذا ولست بحاجة لتذكير.. لكن رغم ذلك علينا أن نحاول.. قرّرت أن أعود حكيما..

تذكّرت امتقاع وجهه وتغيّر نبرة صوته، وكيف حملق فيها ثمّ أجابها في لهجة عنيفة لم تتعوّدها منه..

- تقولين قرّرت؟ أعيديها.. لم أسمعها.. ومتى كنتِ صاحبة القرار؟ ماذا أكون أنا إذن في هذا البيت؟

لم تكن زينب تتوقّع ردّة فعله تلك.. تراجعت مذهولة وأردف قائلا:

- ليس ثمّة زيارة للحكيم.. ولو حاولتِ فعل ذلك..
- حسنا.. حسنا.. أمرك..

منذ ذلك النّقاش الحادّ لم تر زينب وجهه.. لم يأتِ للغداء كما اعتاد.. كانت حتّى ذلك الوقت من المساء تتساءل عن سبب تصرّفه ولم تجد له تفسيرا مقنعا.. لم يكن عبد السّلام من طبعه قاسيا أو عنيدا أو صاحب مزاج متقلّب بل كان هادئا، حنونا، طيّب القلب.. أخذت تفكّر في ما بدر منه وقالت في نفسها «أيكون قد زار الحكيم واتّضح أنّه عقيم فلم يُرِد أن يُعلمني بالحقيقة؟.. كلاّ.. كلاّ.. لو كان الأمر كذلك لَما توانى عن إخباري حتّى يطمئنّ قلبي ويرتاح بالي.. وماذا إن كان العكس هو ما حصل؟ ماذا لو اتّضح له أنّني أنا العقيمة فلم يُرِد إخباري حتّى لا يجرح مشاعري؟..»

أخذت الهواجس تستأثر بعقلها والمخاوف تعبث بقلبها.. ثمّ ألقت نظرة من الشّبّاك فوجدت اللّيل قد خيّم وصوت الرّشاشات والقنابل ما يزال مستمرّا لم ينقطع.. هذه هي المرّة الأولى الّتي تخاف فيها هذا الصّوت.. خافته اليوم لأنّ زوجها لم يزل في الخارج.. لم يعُدْ بعدُ.. انتابها القلق.. «ما الّذي أخّره يا ترى؟ إنّه يُقفِل دكّانه عادة قبل أذان المغرب ويأتي إلى البيت ليتوضّأ ويقصد المسجد مع رفاقه.. ما الّذي غيّر هذه العادة؟ ما الّذي غيّرها سوى الشّرّ المستطير الّذي يتربّص بالكلّ؟ أيكون جداله الصّباحي قد ذهب بصوابه؟ أم يكون قد وقع بين أيدي هؤلاء.. كلاّ.. كلاّ..»

كانت تتساءل وتتساءل وما مِن مُجيب عن لهفتها، فاتّجهت إلى الله بقلب مُفعم بالإيمان والرّجاء وطلبت منه أن يعيد لها زوجها سالما.. وانهمرت الدّموع على خدّيها..

* * *

دقّت السّاعة الثّامنة مساء.. لم تجهّز زينب العشاء.. كانت حيرتها تفوق الوصف.. كانت تذرع البيت جيئة وذهابا.. لم تدْرِ ما تفعل.. جفّت مآقيها من الدّموع الّتي ذرفتها على زوجها الغائب منذ الصّباح.. كانت خائفة عليه من بنادق الأعداء.. فكّرت لوهلة أن تغادر البيت للبحث عنه، لكنّها تراجعت، لا رهبة من الوقوع في أيدي هؤلاء الوحوش ولا شفقة من عدم

إيجاده بل خشية أن تصادفه مسجّى على الأرض جثّة هامدة.. كانت تنتحب «يا ربّ.. لا تجعل حلمي يتحقّق» كانت قد رأت زوجها في منامها وهو يصارع الموت بعد أن اخترقت صدره رصاصة من رشّاش صهيوني.. ورأت أنّها عِوَض البكاء أخذت تزغرد والنّسوة يُزَغردن معها و يَقُلْنَ «زوجكِ شهيد يا زينب.. هنيئا له..».. توجّست من منامها خيفة واقشعرّ له بدنها حينما استفاقت منه.. ولم ترضَ أن تُعلِم به عبد السّلام..

ولم تمرّ دقائق قليلة حتّى فوجئت المرأة بطرق متتابع على الباب.. «مَن الطّارق يا ترى؟ عبد السّلام يملك مفتاحا..» وخفق قلبها بعنف.. تذكّرت في تلك اللّحظة بالذات، حدثا مهمّا كثيرا ما جال بخاطرها وكثيرا ما حاولت طرده بقوّة عزمها وصبرها وإيمانها.. مرّ أمام ناظريها شريط طالما عَمِلَت على طمس مشاهده.. لكنّها لم تقدر.. تذكّرت يوم وفاة والدها.. كانت بنت السّنوات السّبع تعدّ وأمّها طعام العشاء وإذا بطرق يكدّ الباب.. فتحت الأمّ فهالها أن رأت زوجها محمولا على الأكتاف.. رأت زينب ذلك المنظر الرّهيب.. رأت والدها ودماؤه تسيل من جسده.. سمعت صرخة أمّها فأفلتت الصّحون من بين يديها الصّغيرتين ووقعت على الأرض مُحدثة دويّا مرعبا.. أحسّت الفتاة يومها أنّ قلبها انفطر.. كان الرّجال يقولون.. «أبعدوا البنت.. لا تخافي يا ستّ آمنة.. الحاجّ محمّد بخير.. أدخلي الفتاة إلى غرفتها.. جرح زوجك بسيط..» رغم كلّ ما قاله الرّجال لم يعش الحاجّ محمّد.. كان جُرحه غائرا نازفا بلا توقّف.. بعد دقائق، نادى الرّجال السّتّ آمنة بدعوى أنّ زوجها يريد رؤيتها.. تركت الأمّ ابنتها في الغرفة مذهولة وهرعت إليه وما هي إلاّ لحظات حتّى سمعت الفتاة صيحة قويّة أعقبها عويل وطُبِعت الحادثة في ذهنها.. خمس وعشرون سنة لم تنس زينب المشهد، ورغم أنّها منذ زواجها لم تعُد تقريبا تذكره، أو ربّما ظنّت المسكينة ذلك، إلاّ أنّ ذلك الطّرْق في ذلك الوقت تحديدا أعاد كلّ ما دفنته ذاكرتها في الماضي إلى الحياة من جديد..

طُرِقَ الباب ثانية، فتمتمت بصوت امتزج فيه الألم بالأمل «مـ.. من الطّارق؟» فأتاها صوت ألِفته بل وأحبّته أذنها..

- أنا عبد السّلام يا زينب.. افتحي..

لم تتمالك المرأة نفسها.. هرعت إلى الباب ودموعها تنهمر ولسانها يحمد الله الّذي أفرج كُربتها.. أخيرا اطمأنّ قلبها وانزاحت الهواجس من مخيّلتها والمخاوف من صدرها..فتحت الباب وهمّت باحتضانه إلاّ أنّه قال لها بحنان:

- انتظري قليلا يا زينب.. أ لن ترحّبي بالضّيف أوّلا؟

ضيف؟ نزلت المرأة ببصرها فرأت يدا صغيرة تمسك بإصبع زوجها، ثمّ وجها صغيرا يتأمّلها في دهشة ثمّ جسدا صغيرا واقفا ينتظر الإذن بالدّخول.. ارتسمت على وجهها علامات الاستغراب والذّهول..

- ابن من هذا الفتى يا عبد السّلام؟

- أ لا يمكنني الدّخول أوّلا؟

* * *

جلبت زينب آنية كبيرة مُلِأت ماءً دافئا وُضِع فيه القليل من الملح وجلست على الأرض.. وضع الزّوج رجليه وسط الإناء وشرعت هي في الدّعك منتظرة أن يحدّثها عن أمر الفتى الّذي انتحى ركنا قصيّا من الغرفة وجلس على الكرسيّ في صمت..

- إيه.. سلِمَت يداكِ يا زينب..

فردّت هي في لهجة عتاب يشوبه العطف..

- لن تكفّر بهذه العبارة عمّا سبَّبْتَه لي اليوم يا عبد السّلام..

- هل كنتِ خائفة عليّ يا عزيزتي؟

- نبرتُكَ هذه اللّيلة تفضح شعورك بغبطة وسرور لم أفهم بعدُ مردّهما.. ثمّ إنّك لم تجبني عن سؤالي.. ابن من هذا الفتى يا عبد السّلام؟

- هذا هو سبب غيابي طوال اليوم وتأخّري عن العودة وهو أيضا مردّ الغبطة الّتي أشعر بها الآن..

- لم أفهم بعدُ ما تقصد..

- عندما كنتُ أهمّ بالعودة اليوم لتناول طعام الغداء.. وجدتُ هذا الصبيّ واقفا بباب دكّاني.. كان يبكي ويرتعد خوفا.. حضنته وسألت عن اسمه فلم يُجِبني.. كان يتمتم.. "جو.. جو..".. سألته عن اسم أبيه وأمّه فأخذ يبكي.. عرفتُ أنّه تاه عن أهله، وأنّه لا يعرف مكان بيته.. حملتُهُ معي واشتريت له حلوى ومرطّبات وأخذتُ ألُفُّ به الشّوارع علّني أعثر على من يدلّني على مسكنه فلم أُفْلِح.. أُرجّح أنّ بيته قد هُدِم كما هُدِمت عشرات مساكن القرية منذ قيام الانتفاضة.. وأرجّح أنّه الوحيد النّاجي من بين أفراد عائلته.. ربّما كانوا الآن تحت الأنقاض..

- هل تفكّر في أن تتركه معنا حتّى يظهر أهله؟

- هلاّ تقاسمينني الرّأي؟

- بلى.. الصّبي وحيد لا عائل له.. ونحن وحيدان لم يرزقنا الله بمولود.. سأعتبره ابني حتّى يفرجها القدير.. ربّما كانت تلك حكمته حتّى أعوّض الفتى عن حنان أسرته ويعوّضني هو عن حرماني من الإنجاب..

- لكنّني أخشى أن نتعلّق به فيصعب علينا فراقه إن عثرنا على عائلته..

- كلّ شيء بأمر الله..

قالت هذه الكلمة ونهضت من فورها.. أعادت الإناء إلى المطبخ، وانحنت على الطّفل وقد تعتعه الوسن.. حملته بين ذراعيها وأحسّت في تلك اللّحظة لأوّل مرّة بدفء الأمومة يسري في عروقها..

* * *

أشرقت شمس اليوم التّالي.. نهضت زينب وهرولت نحو الفتى فوجدَته قد فتح عينيه وجلس على الفراش في صمت.. كان طفلا هادئا، رصينا، بهيّ الطّلعة، تلوح في عينيه نظرة بريئة ممزوجة بذكاء حادّ.. كان يرنو إليها في سلام.. لم يَخَف منها.. لم يبكِ.. لم يحسّ بأيّة غربة رغم أنّه لا يعرفها أبدا..

كان عليه ربّما أن يشعر للوهلة الأولى بنوع من الاغتراب أو الدّهشة.. لكنّ من ينظر إليه يظنّه قد وُلِدَ وتربّى بين يديْ زينب وزوجها.. كان شعره أسود ناعما وبشرته بيضاء وعيناه بلون العسل.. جلست زينب حذوه وقالت له بلطف:

- ما اسمكَ يا عزيزي؟

فأخذ ينظر إليها ولا يجيبها.. أحسّت زينب بالشّفقة نحوه فأخذته في حضنها وقالت له:

- أنا اسمي زينب وذلك الرّجل الّذي جلبكَ البارحة إلى هنا يُدعى عبد السّلام..

- نظر الفتى إليها في اطمئنان ثمّ بدأ يبتسم.. ضمّته زينب إلى صدرها ثمّ قالت له بغبطة:

- ما رأيكَ أن نذهب لنغسل وجهنا ثمّ نعدّ فطور الصّباح قبل أن يستيقظ بابا؟

وما إن نطقت هذه الكلمة حتّى أحسّت أنّ لسانها قد زلّ.. ما الّذي حملها على لفظ هذه العبارة؟ هل صدَّقَتْ فعلا أنّها ستكون له أمّا؟ هل أوهمت نفسها أنّه سيكون لها ابنا وصدّقت هذا الوهم؟ جالت هذه التّساؤلات في نفسها المنكسرة لكنّها غضّت عنها الطّرف واعتبرتها وساوس يريد الشّيطان أن تكدّر صفو يومها الجميل..

وعندما تحلّقت العائلة حول المائدة لتناول فطور الصّباح، لاحظت زينب شيئا يلمع في عنق الصّبيّ، وما كانت إلاّ قلادة في شكل نصف قلب كُتِبَ على صفحتها حرف الألف بالإنكليزية وعلى ظهرها دُوِّنَ تاريخ 11-11-1984..

قالت زينب لزوجها وهي ممسكة بالقلادة:

- ربّما كان اسمه أحمد..

- وربّما كان هذا تاريخ ميلاده..

ومرّ اليوم التّالي، ومرّ أسبوع، وتعلّقت الأمّ بابنها أكثر ولم تعد تتصوّر لحياتها طعما بدونه.. صار أنيسها الوحيد.. بل إنّها لم تكن تتركُهُ يطلّ بوجهه من الشّبّاك خوفا من أن يعثر عليه أحد من أهله فيخطفه منها.. وأدرك عبد السّلام ذلك

سريعا، لكنّه لم يعترض على إرادتها ورَحِمَ خوفها على تلك الهديّة الّتي قدّمها لها الله وخشيتها أن تضيع منها بعد طول بحث عنها.. حتّى عبد السّلام كان يشعر الشّعور ذاته.. كان يتعجّل العودة إلى بيته حتّى يلقى ذلك الوجه الصّبوح، وقبل العودة كلّ مساء، كان يمرّ ببائع الحلوى ليبتاع لابنه ما تهفو إليه نفسه من المرطّبات والحلويّات الّتي يحبّها.. وكان مجرّد التّفكير في أنّ أهل الفتى يمكن أن يطرقوا الباب في أيّة لحظة هو ما ينغّص عليه غبطته وفرحته..

* * *

ومرّت الأعوام، وبلغ أحمد سنّه الخامسة، ولم يدقّ أحد الباب ولم يأت الأهل للمطالبة بابنهم.. حقّق الله رجاء الأمّ المسكينة، بل أكثر من ذلك حقّق لها أمنية أخرى لم تَعُد تطالب بها مذ رزقها القدير بأحمد فملأ عليها حياتها.. عندما بلغ أحمد الخامسة، كانت زينب تستعدّ لتضع أوّل مولود لها..

في ذلك المساء، جلسا ينتظران عودة الأب.. وضع أحمد رأسه في حضنها كما تعوّد أن يفعل دائما، واستلقى على ظهره وقال لأمّه:

- هل صحيح أنّكِ ستنجبين لي أخا بعد شهر يا أمّاه؟

- إن شاء الله يا بنيّ.. لو أنجبتُ ولدا سأسمّيه محمّدا على اسم رسول الله، ولو أنجبت بنتا سأسمّيها آمنة على اسم أمّ رسول الله..

- ولِمَ لم تسمّني أنا محمّدا؟ أنا ابنكِ الأوّل..

عندها نطّت بذاكرتها صورة القلادة الّتي كُتِبَ عليها حرف الألف.. لم يكن أحمد يعلم بالأمر.. لم يُعْلِمه أحد.. كادت أن تخبره لكنّها تراجعت وقالت له مصطنعة الابتسام ومُخْفية حيرتها..

- اسم أحمد هو كذلك اسم رسول الله يا بنيّ.. ثمّ إنّ كلّ الأسماء جميلة..

- وهل ستكون عيناه سوداوين كعينيكِ أم بنّيّتين كعينيّ؟

كان كلّ سؤال يطرحه ببراءته المعهودة يذكّرها بأنّه ليس ابنها.. لم يكن يشبهها، ولم تنجبه بطنها، لكنّها رغم ذلك أحبّته أكثر من نفسها..

وما هو إلاّ أسبوع حتّى وُلِدت آمنة وامتلأ البيت زغاريد وعمّت أرجاءه الأفراح.. كانت المولودة الأولى والابنة الثّانية بعد أحمد.. وكان أخوها أسعدَ النّاس جميعا بها.. كان ينظر إليها في دهشة وسرور عارمين ثمّ ينظر إلى أمّه ويبتسم.. وكانت زينب تحدّق في ابنيها وتكاد من فرط اغتباطها أن تذرف الدّمع السّخيّ.. كانت تنظر إلى وجهيهما وتستشعر بإحساس الأمومة شبها واضحا بين ملامحهما.. شبها لم يكن أحد يلحظه غيرها.. كانت تدعو الله الّذي طلبت منه أن يرزقها بمولود فرزقها باثنين أن يحميهما من كلّ أذى وأن يمدّ في أنفاسها وأنفاس والدهما حتّى يكبرا أمام عينيهما السّاهرة على رعايتهما..

ومرّت الأيّام، وبمرورها لم تنمُ بين الأخوين إلاّ المحبّة والودّ والألفة.. لم يكن أحمد يأكل شيئا قبل أن يقدّم منه لآمنة ولم يكن يمارس لعبة قبل أن تشاركه هي اللّعب.. ولم يكن أبدا يغضب منها إن كسرت له لعبة أو مزّقت له كرّاسا.. بل بالعكس، كان يؤنّبها قليلا بعبارات لطيفة ثمّ يربّت على رأسها بحنان.. وكانت هي رغم صِغَر سنّها فتاة حسّاسة ورقيقة المشاعر وذكيّة.. لم يكن أحمد يحسّ نحوها بالغيرة الّتي تنشب عادة بين الإخوة وخاصّة في طور الطّفولة بل كان يؤثرها أحيانا على نفسه فيقدّم لها قطعة الحلوى الّتي لا يملك غيرها ويعطيها نصيبه من الشّكلاطة الّتي يحبّها كثيرا..

* * *

وعندما أتمّ أحمد العاشرة كانت آمنة قد بلغت الخامسة من عمرها.. كان شعرها أسود كشعر أمّها وبشرتها بيضاء كأبيها.. لكنّها جمعت العفويّة والبراءة وطيبة القلب من كليهما، وتعلّمت الأخوّة والإيثار والتّضحية من أخيها، فكانت نموذجا للطّفلة المثاليّة.. كان صوت ضحكتها البريئة يرنّ في أرجاء

البيت فيضفي جوّا من البهجة والسّرور ويغطّي كلّ كآبة من الممكن أن يتركها غياب عبد السّلام في الدّكان أو أحمد في المدرسة.. كانت على صِغَر سنّها تحبّ أن تساعد أمّها في شؤون البيت.. كانت تقول دائما:

- أرجوك يا أمّي.. أعطيني قطعة قماش حتّى أنفض الغبار عن الأثاث..
- ستلوّثين ملابسك..
- أريد أن أغسل الأواني..
- أخشى أن تكسريها..
- هل أطبخ معكِ طعام الغداء؟
- الطّبخ صعب عليك..

وأمام هذه الإجابات المتكرّرة، تضطرّ آمنة إلى الاكتفاء بترتيب المنزل والمكوث بالمطبخ حذو أمّها في انتظار عودة الأب والأخ.. وكانت أحبّ ساعة إلى قلبها السّاعة الّتي يهلاّن عليهما فيها.. كانت تنتظر والدها الّذي يجلب لها معه كلّ ما تشتهيه وتنتظر أخاها الّذي يلعب دائما معها فلا تشعر بالملل في وجوده..

وعندما يحلّ المساء، كانت العائلة تجتمع لاحتساء كوب الشّاي.. وكان أحمد يطلب من أمّه دائما أن تسرد عليه القصص حول ما فعله العدوّ بأبناء البلد.. فكانت هي ترفض ذلك في البداية، ثمّ وبعد إلحاحه الشّديد تندفع بكلّ ما كتمت في قلبها من بُغْضٍ للأعداء فتُنْزِل عليهم وابلا من اللّعنات والأدعية الّتي لا يملك المظلوم غيرها ثمّ تنطلق في سرد الحكايات عن مريم بنت الجيران الّتي قتلها أحد الجنود وهي في ريعان شبابها، وعن سالم الّذي داسته دبّابة فرحل تاركا زوجة في مقتبل العمر وابنا في عامه الأوّل، وعن ياسر الّذي اخترقت فؤاده رصاصة يوم كان يهمّ بالاحتفال بعيد ميلاده وكان الطّاغية سبّاقا إلى مهاداته.. كانت تسرد حكايات واقعيّة ولكنّها كانت تُهَدهِد الأطفال حتّى ينام الأوّل على رجلها وتنام الثّانية على صدرها..

كانت الأمّ تبتسم في حزن وتقول لزوجها:

- أ ترى يا عبد السّلام؟ إنّ حكايات الموت والحرب عندنا باتت كقصّة الشّاطر حسن.. عاديّة.. بل وتبعث على النّوم..

- إنّهما طفلان يا زينب.. أحمد وآمنة لا يقدّران إلى الآن صعوبة الموت وحسرة أن تفقد شخصا يحبّه قلبك بين لحظة وأخرى..

- أرجوك لا تقل هذا الكلام ثانية.. إنّ مجرّد سماعه يجعل قلبي ينقبض ونفسي تتألّم.. أنا أرفض حتّى التّفكير في هذا الأمر ولولا إلحاح أحمد على سماع هذه الحكايات كلّ ليلة لما فتحت هذا الموضوع.. لن تتصوّر يا عبد السّلام كم يؤلمني أن أتذكّر أحبّائي الّذين سلبتهم منّي يد الصّهاينة.. والدي.. وصديقتي خديجة.. وابن خالي..

- هوّني عليك يا زينب.. كلّهم شهداء ومأواهم الجنّة إن شاء الله..

- إنّني أدعو القدير في كلّ صلاة أن يفرج كربتنا وأن يحمينا ويحمي أولادنا من كلّ سوء..

* * *

كان الغد يوم عطلة، استيقظت العائلة وتناولت فطور الصّباح، وبعدها انصرف كلّ إلى شغله، فأمّا الأمّ فأخذت الأواني وتوجّهت بها إلى المطبخ لتغسلها وتستعدّ لطبخ طعام الغداء، وأمّا أحمد فجلس على المائدة ليعدّ دروسه، وأمّا آمنة فأبت إلاّ أن ترافق أباها إلى السّوق لاقتناء بعض الحاجيات.. لم يكن عبد السّلام يريد حملها معه خوفا عليها.. لكنّ زينب شجّعته بحجّة أنّ الفتاة ملّت المكوث في البيت طوال الأسبوع..

ومرّت الدّقائق والسّاعات، وقَرُبَ وقت الغداء.. أغلق أحمد دفاتره واتّجه نحو المطبخ وقال لأمّه:

- أتممتُ واجباتي يا أمّاه.. هل ترغبين في أن أساعدكِ بشيء؟

- سلمتَ لي يا ولدي.. أريد فقط أن أعرف كم السّاعة الآن..

نظر أحمد إلى السّاعة الحائطيّة المعلّقة بجدار الغرفة مُدْركا خبايا سؤال أمّه وأجابها:

- إنّها تدقّ منتصف النّهار.. هل أنتِ قلقة على أبي؟
- وعلى آمنة كذلك..
- لا تخشيْ شيئا.. هيّا نعدّ المائدة.. أحسبهما في الطّريق إلى هنا..

حاول الإبن طمأنة والدته ولكنّ الوجل ظلّ ملازما لها، مسيطرا على نبضات قلبها.. لم يكن إقناع زينب بالأمر الهيّن.. «أربع ساعات تكفي للذّهاب والتّسوّق والعودة.. لم يتعوّد عبد السّلام العودة بعد السّاعة العاشرة والنّصف.. أ تكون آمنة هذه المرّة قد عطّلته؟ إنّها فتاة عنيدة ومدلّلة.. هل شغلته باقتناء بعض الحلويّات من مكان أبعد من السّوق؟»

جلست على مقعد بالمطبخ ووضعت يدها على خدّها.. تذكّرت ذلك اليوم من سبع سنوات.. يوم ظلّت تنتظر زوجها يوما كاملا وأتاها بصحبة أحمد.. يومها خافت على زوجها واليوم هي خائفة على زوجها وابنتها.. وقف أحمد قبالتها يهوّن عليها ويواسيها ويخفّف من قلقها.. لم يكن يقدّر صعوبة الموقف ولا جسامة أن يتأخّر والده وأخته أكثر من ذلك، ولا معنى الخوف الّذي ينتاب أمّه وينهش قلبها حتّى ما عادت قادرة على إخفائه مدّة أطول.. أحسّت أنّها تريد أن تبكي لكنّها صمدت أمام عبراتها وحاولت مداراة اضطرابها عن ابنها الّذي لم يكن يملك فعل شيء للتّهدئة من روعها..

ومرّت ساعة وساعتان وبَرُد طعام الغداء وأدرك أحمد خطورة الوضع.. أمّا زينب فأرادت إيهام نفسها بعودتهما القريبة فما كان منها إلاّ أن قالت لابنها بنبرة فضحت عذابها والدّموع تكاد تفرّ من عينيها:

خذ الملاعق.. رتّبها على المائدة وسأجلب أنا الصّحون..

وحملت الصّحون ثمّ استوت واقفة.. مرّ أمامها ذلك المشهد المشؤوم.. كان قد دُفِن بقدوم أحمد، فما الّذي جعله يظهر اليوم من جديد؟ زادها ذلك حيرة لكنّها تغاضت عن الأمر وأخذت الصّحون.. وفي طريقها إلى المائدة سُمِع دويّ قويّ اهتزّت له أركان البيت.. خفق قلب الأمّ.. ارتعشت يداها.. سقطت الصّحون.. أحدث سقوطها صوتا مرعبا.. نفس الصّوت الّذي سمعته منذ أكثر من ثلاثين سنة.. هرعت إلى أحمد تحتضنه وانهمرت دموعها وهي تقول «أسترها يا ربّ»..

لم يكن صوت الانفجارات والقنابل صوتا غريبا أو مخيفا.. بل بات معتادا.. كانت زينب تألفه حينما تكون كلّ الأسرة متجمّعة في البيت.. أمّا الآن والزّوج والبنت في الخارج منذ الصّباح فقد صار باعثا على القلق.. ومرّ الوقت، وفي غمرة الحزن والهمّ، نسيت الأمّ أنّ ابنها الصّغير لم يتناول منذ الصّباح شيئا فقالت له:

- أ لا تشعر بالجوع يا أحمد؟ أ لا تريد تناول غدائك؟
- لا أريد أن آكل شيئا حتّى تأتي آمنة..
- لكنّ غيابها قد طال..
- مهما طال.. لا بدّ أن تأتي..

لم ترد زينب أن تلحّ عليه أكثر.. أدركت مشاعره.. هو الآخر انتابه ذات القلق الّذي انتابها.. أرادت أن تتسلّى قليلا، ففتحت المذياع وجاءها صوت نشرة الأخبار "عشرة قتلى في غزّة نتيجة انفجار قنبلة.. خمسة جرحى في انفجار عبوّة ناسفة في نابلس.." أحسّت المسكينة أنّها اختارت أسوأ طريقة حتّى تروّح عمّا يختلج بنفسها من غمّ وآلام.. زادتها الأخبار حزنا على حزنها وهمّا على همّها.. همّت بإقفال المذياع حين استوقفها الخبر الأخير "اغتيال إسحاق رابين رئيس حكومة إسرائيل.." تهالكت على أقرب كرسيّ.. نظرت حولها فأحسّت بنذير الشّؤم وشعرت بأنّ ذلك اليوم الطّويل لن يمرّ بسهولة..

سمعت لوهلة ما نعيق البوم يحوم حول بيتها.. لعنت الشّيطان الرّجيم.. قرأت آية الكرسي وتلت المعوّذتين.. ثمّ همّت بالنّهوض لتتوضّأ استعدادا لصلاة العصر.. وما إن خطت خطوة حتّى سمعت عويلا في الخارج وصياحا.. خفق قلبها وقالت في نفسها «يا إلهي لعلّ ابن أحد الجيران استشهد..» غيّرت وجهتها نحو باب الدّار حتّى تستجلي حقيقة الأمر وتواسي الجيران في مُصابهم.. وما إن خطت الخطوة الثّانية حتّى طرق الباب.. اكتمل المشهد.. تزايد خفقان قلبها، بل صارت قادرة على عدّ نبضاته.. أحسّت بالدّماء تجمد في عروقها.. اقشعرّ بدنها.. اصفرّ وجهها.. تبلّل جبينها عرقا.. ازدردت ريقها وتصلّب جسدها على وضعه ذاك.. لم تعد قادرة على الحراك.. تذكّرت والدها.. وتذكّرت غياب زوجها وابنتها.. وتناهى إلى سمعها العويل قريبا من باب الدّار.. قفز أحمد عندما سمع الطّرق المتتابع.. «لقد أتى أبي ومعه آمنة» وعندما همّ بفتح الباب صرخت الأمّ بكلّ ما أُوتيت من جهد «لا.. لا تفتح.. أنا.. أنا الّتي سأفتح..» تراجع الولد وتقدّمت الأمّ بخطى ثابتة وشجاعة.. ارتعشت يدها.. فتحت الباب.. وسقطت مغشيّا عليها.. وأمام العتبة، وقف عبد السّلام ممسكا بين ذراعيه جسد آمنة وقد فارقت الحياة..

* * *

حملت النّسوة الأمّ إلى غرفتها، سقينها الماء، رششن وجهها الممتقع بالعطور، وما إن استفاقت حتّى ذكرت آخر لقطة، فأخذت تصرخ «آمنة.. هاتوا لي آمنة.. ابنتي.. ابنتي.. خطفوها منّي.. أريد ابنتي.. أريد آمنة..».

أمّا أحمد، فلم يفهم شيئا.. كان ينظر في ذهول لكلّ ما يجري حوله.. ارتسمت صورة أخته البريئة الّتي كان دائما يلاعبها في مخيّلته..وبعدها أخذ يتساءل «ماذا يعني أنّها ماتت؟ كيف تموت وهي ما تزال صغيرة؟ من قتلها؟ أولئك المجرمون الّذين حدّثتني عنهم أمّي؟.. أصحاب البدلات الخضراء والطّرابيش الّتي رُسِمَ عليها نجم أزرق؟ أ لن أراها ثانية؟ مع

من سألعب إذن؟ من سيتناول معي طعام الغداء؟ الملوخيّة الّتي تحبّها.. لقد اشتريت لها بالأمس حلويّات لذيذة.. هل سآكلها لوحدي؟ من سينتظر بعد ذلك عودتي من المدرسة بفارغ الصّبر؟ كانت تنتظرني كلّ يوم وكنتُ أعود كلّ يوم باكرا كما وعدتُها.. فلِمَ لم تَفِ هي بوعدها؟ انتظرتها طويلا لكنّها لم تَعُدْ..».

وأمّا الأب، فكان يجلس مُطْرِقا ولا يحسّ بما يدور من حوله.. كان منظر مقتل البنت بين عينيه، لم يفارق خياله للحظة واحدة..

كان يتذكّر كلّ ما حدث بأدقّ تفاصيله.. تذكّر كيف خرج معها صباحا واتّجها مباشرة نحو السّوق.. وهناك، كانت تستوقفه عند كلّ دكّان، فتقول له تارة «أحمد يحبّ هذه الحلوى، اشترها له» وتارة أخرى «أعجبتني هذه الشّكلاطة، اشتر منها قطعتين، واحدة لي والأخرى سأفاجئ بها أحمد حال عودتي»، وطورا، «أحبّ هذه الدّمية وهذا المسدّس اقتنه لأحمد حتّى يحارب به الوحوش الّتي حدّثتنا عنها أمّي البارحة».. «تلك الشّكلاطة الّتي أعجبتكِ لم تأكليها ولم تفاجئي بها أحمد ولم تعودي.. ولم تلعبي بدميتك.. وذاك المسدّس لن ينفع في الانتقام من الوحوش الّذين قتلوكِ». ثمّ مرّ الشّريط بسرعة وتوقّف في اللّحظة الّتي قُتِلت فيها آمنة.. كانا يتجوّلان، وفجأة، سمعا دويّا هائلا رجّحا أنّه صوت انفجار قنبلة أعقبه طلق ناريّ.. فزع النّاس وتبدّد شملهم وفرّ كلّ إلى طريقه إلاّ عبد السّلام، لم يَدْرِ من فرط المفاجأة ما يفعل.. وأوّل ما فكّر فيه أن حمل ابنته في حضنه حتّى يقيها الخطر.. لكنّ براثن الموت كانت أقرب لها من حضنه.. أصابت طلقة ظهرها.. تمادى هو في الهرب.. كان مطمئنّا لأنّ البنت بين ذراعيه.. وما إن وصل إلى مكان آمن حتّى أحسّ بحرارة تتدفّق بين أصابعه.. كانت دماء الفتاة الصّغيرة.. وكانت هي بين يديه جسدا بلا روح.. وعندها انقطع خيط ذاكرته.. لم يذكر بعدها كيف وصل بها إلى البيت ولا ما حدث بعد ذلك..

* * *

ومرّ أسبوع على وفاة البنت.. رأف الجيران طوال ذلك الأسبوع بحال تلك العائلة الّتي نُكِبت في أصغر أفرادها، وكانت النّسوة يواسين الأمّ الثّكلى ويبكين معها أحيانا من فرط التّأثّر.. لكن بمرور ذلك الأسبوع، لم يجد الجيران والأحباب بدّا من مفارقة زينب بعد أن اطمأنّوا إلى هدوء حالتها وتأكّدوا من قوّة إيمانها.. وعادوا إلى منازلهم وخفّت الدّار إلاّ من الأمّ والأب والابن.. ظنّ الجميع أنّ تلك السّحابة مرّت بسلام وأنّ الصّبر كفيل بنكئ الجِراح.. لكنّ الحقيقة كانت غير ما اعتقدوه.. بدت لهم زينب قويّة، لكنّها في الواقع أضعف أفراد الأسرة.. كانت آمنة أقرب الجميع إلى قلبها.. كانت هي من تؤنس وحدتها وتملأ عليها فراغ البيت بهجة وسرورا.. كانت هي من تصبّرها على ألم تلك الحياة الّتي تفجع كلّ يوم أحدا في عزيز على قلبه.. كانت تحلم باليوم الّذي تكبر فيه آمنة فتُلْبِسها فستانا أبيض.. وهاهي اليوم تُلْبِسها كفنا مُزدانا بدم الشّهادة..

كانت الأمّ المفجوعة تجلس أحيانا لوحدها وتحدّث نفسها.. «كم تمنّيت أن يكون لي ولد.. وعندما كانت لي البنت أضعْتُها من بين يديّ.. بين يوم وليلة لم يَعُد لها وجود بيننا.. صرنا نقول "كانت آمنة"..» ثمّ تجهش ببكاء مسترسل لا ينقطع حتّى تحسّ بالتّعب فتنام نوم الهارب من عتمة الواقع إلى نور الأحلام.. وكانت أحيانا تجلس إلى زوجها وتقول له:

- كان معكَ كلّ الحقّ.. لازال كلامكَ من سبع سنوات يرنّ في أذني.. حينما قلتَ لي أنّ حكمة الله أبت أن يكون لنا ابن يعيش في هذه الظّروف الّتي لا ترحم أحدا وتخطف الصّغير قبل الكبير.. كنتُ عندها أقول أنّ الله لو رزقني مولودا سأضعه في عينيّ وأغلق عليه أجفاني حتّى لا تطوله يد العدوّ.. ورزقني الله بآمنة لكنّني لم أستطع أن أحافظ على الهديّة.. وضعتها في عينيّ لكنّهم خطفوها منّي.. ليتهم خطفوا عينيّ وتركوا لي آمنة..

- ليكن إيمانك بالقدير قويّا ولا تدعي الشّيطان يزعزعه.. ابنتنا الآن بين يدي الرّحمان.. ومأواها الجنّة مع الشّهداء يا زينب..

- إنّني أدعو الله دائما أن يغفر زلاّت وقع فيها لسان أمّ فُجِعَت في ابنتها.. الحمد لله.. أحمده على كلّ شيء..

كانت أحيانا تثوب إلى رشدها وأحيانا أخرى تُمْسك بتلابيب زوجها وتقول له «أنتَ الّذي أهملتها.. لم تعتنِ بها جيّدا حينما أخذتها معكَ إلى السّوق.. وما الّذي جَعَلكَ تحملها معكَ؟ حتّى وإن شجّعتكَ أنا على ذلك.. كان عليكَ أن ترفض.. هل تقصد أنّني أنا السّبب في موتها؟ لم أكن أتركها تغادر البيت فما الّذي جرى لي يومها؟ آه يا آمنة! آه يا ابنتي!..»

كانت هذه النّوبات تنتابها في أوقات متقطّعة.. فما يكون من زوجها المسكين إلاّ أن يحاول تهدئتها بشتّى الطّرق حتّى يضطرّ أحيانا إلى إعطائها أدوية مهدّئة وصفها له الدّكتور كعلاج في الحالات القصوى.. كانت تعتكف أحيانا وتظلّ تسأل نفسها وتجيب حتّى يظنّ من يراها أنّ خبلا ما أصابها.. وكانت أحيانا تنادي آمنة ولا تتذكّر ما أصاب ابنتها إلاّ بعد أن تتعب من النّداء وتفهم ألاّ حياة لمن تنادي..

مرّت أسابيع وهي على تلك الحالة حتّى خشي زوجها أن تُجنّ فعرضها على أكثر من طبيب نفسي وأكّد له الأطبّاء أنّها أزمة عاديّة وعابرة ستخرج منها بعون الله بسلام وأوصوه ألاّ

يتركها وحيدة في البيت.. ولم تقصّر الخالة عائشة قابلة القرية في ذلك إذ قرّرت المكوث بجانبها حتّى تستقرّ حالتها..

أمّا أحمد، فلم يحسّ بحقيقة الوضع ومرارته إلاّ بعد أن مرّ يوم ويومان على الحادثة.. أحسّ بوحدة فضيعة.. أحسّ بفراغ لم يتعوّده.. ورغم أنّ المنزل لم يكن خاليا من البشر الّذين جاؤوا للتّعزية والمواساة، ورغم الحركة والجلبة الّتي عمّت أرجاء البيت إلاّ أنّه كان يحسّ بغياب أهمّ أفراد العائلة بالنّسبة إليه.. كان يبحث عن آمنة فلا يجدها.. كان يريد أن يصرخ.. أن يناديها بأعلى صوته.. لكنّ شيئا ما بداخله كان يخبره ألاّ فائدة من الصّراخ والنّداء.. أنّ أحدا لن يجيبه.. أنّه لن يسمع إلاّ صدى ندائه.. أنّ صراخه سيتردّد في أرجاء البيت..

مساء الحادثة، لم يتناول أحمد غداءه، ولم يتعشّ، بل نام على أمل أن تنقشع تلك السّحابة السّوداء وتشرق شمس اليوم الجديد وتطلّ عليه آمنة عند استيقاظه ليتناولا معا فطور الصّباح كالعادة.. واستيقظ فجر اليوم التّالي على نفس أصوات الجلبة الّتي تركها في اللّيل.. لم يصدّق أنّ تلك السّحابة لم تنقشع.. قدِمت الخالة عائشة وقالت:

- صباح الخير يا أحمد.. هيّا اذهب لتغسل وجهك حتّى أعدّ لكَ لقمة تأكلها، إنّك لم تتناول شيئا منذ الأمس..

- أين آمنة؟ هل استيقظت؟

- ماذا؟ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله..

- ألم تستيقظ بعد؟ سأذهب لأوقظها.. ستغضب منّي فيما بعد إن عَلِمت أنّني أفطرت دون أن أوقظها..

وقفز من سريره دون أن ينتظر إجابة الجارة الّتي لم تجد ردّا بل وقفت وقد ارتسمت على وجهها آيات الاستغراب والحسرة.. ذهب أحمد إلى فراش أخته فوجده فارغا إلاّ من دميتها الّتي كانت تحبّها كثيرا.. تذكّر حكايات أمّه عن العدوّ.. تذكّر ذلك المشهد الّذي رآه أمسا.. تذكّر صوت البكاء والعويل.. تذكّر تلك العبارات "رحمها الله.. يقتلون البراءة قاتلهم الله.".. تذكّر منظر أمّه مغمى عليها.. تذكّر انتظاره

العقيم.. نظر إلى فراشها.. خفق قلبه.. أدرك في تلك اللّحظة حسرة أن تفتقد شخصا يحبّه قلبكَ بين إغفاءة عين واستفاقتها.. أدرك معنى الموت ومرارته.. جذب الدّمية.. احتضنها.. وسقطت على خدّه دمعة ودّعت أخته البريئة وروحها الطّاهرة واختزلت كلّ معاني البُغض والحقد لتلك الأيادي الآثمة..

II

استيقظت زينب على صوت أحمد يتوضّأ استعدادا للقيام بفريضة الصّبح.. أزاحت الغطاء وجلست على السّرير تطرد بقايا الأرق العالقة بجفونها الّتي لم تعد تُغْمض ليلا ولا نهارا.. كان صوت القنابل والتّفجيرات يقضّ مضجع جميع أهل البلد.. وكان الخوف على الأبناء والأحفاد الصّغار يأسر قلوب الآباء والأمّهات والأجداد.. وحتّى بعد مرور أشهر على قيام الانتفاضة وأكثر من خمسين سنة على الاحتلال لم يتعوّد السّكّان هذه المأساة بل وارتبط صوت الحرب بالنّسبة إليهم بقبضة عزرائيل الّتي باتت تحوم فوق رؤوس الكلّ وتقتلع الصّغير قبل الكبير.. وكان قلق زينب كلّه منصبّا على أحمد الّذي أضحت وطنيّته تخيط أكفانه..

نزلت الأمّ من السّرير، وضعت منديلها على رأس اشتعل مفرقه شيبا وغادرت الغرفة متّجهة إلى حيث جلس أحمد يتوضّأ فبدا جسدها في ظلام الغرفة، الّذي خالطه نور المصباح الّذي أشعله أحمد، ظلاّ هزيلا سلبته الأيّام والأحزان بدانته المعهودة، وبدا وجهها شاحبا زاده الهمّ سمرة وكساه الغمّ تجاعيد الشّيخوخة المبكّرة..

وقفت زينب أمام ابنها فرفع هو رأسه في ابتسام وقال لها:

- صباح الخير يا أمّاه.. أنا آسف إن كنتُ قد أيقظتكِ من نومكِ..

- نومي؟ وأين هو النّوم يا بنيّ؟

- ستُفرج بإذن الله يا أمّي..

ثمّ استطرد..

- هل استيقظ أبي هو الآخر؟

- لا أحسب ذلك..

- عجبا.. أ لن يذهب معي إلى المسجد كالعادة؟

- إن كان نائما فلا توقظه.. نادرا ما تجد النّوم مُتاحا لنا هذه الأيّام..

- حسنا.. أنا سأقصد المسجد الآن..
- وبعد الصّلاة يا بنيّ..
- أنتِ تعرفين يا أمّي أنّني أظلّ مع أصحابي..
- تظلّ؟ أنت ستضِلُّ يا أحمد.. أرجوك يا ابني.. ابتعد عن هؤلاء الّذين يأخذونك معهم إلى سبيل لن يؤدّي إلاّ إلى الهلاك..
- أصحابي وطنيّون.. وسبلهم هي سبل الجهاد والنّضال وهي سبل شريفة والهلاك في سبيل الوطن استشهاد.. أ تطلبين منّا السّكوت والصّهاينة ينتهكون حرماتنا ويدنّسون مساجدنا ويقتلون إخواننا؟ مسجد الأقصى الّذي بنى تاريخ بلادنا وكان رمز الإسلام يدخله صهيونيّ يقتّل كلّ يوم مئات المسلمين؟
- أنا خائفة عليك.. لا أريدك أن تضيع منّي كما ضاعت منّي آمنة منذ خمس سنوات..
- دم أختي في رقبتي ولن يهنأ لي بال حتّى أنتقم ممّن قتلوها..

وما إن أتمّ كلامه حتّى ارتفع صوت المؤذّن معلنا حلول وقت صلاة الفجر.. فأردف أحمد قائلا:

- عن إذنك يا أمّاه.. أريد أن ألحق الصّلاة جماعة..

فارتفعت يد الأمّ بالدّعاء «اللّهم انصرنا وأعِد لنا أبناءنا سالمين يا ربّ العالمين».

* * *

وبعد الخروج من المسجد، اجتمع الأصحاب للتّفكير في طرق مجابهة العدوّ وعرض كلّ منهم خطّة محكمة ظلّ يرسمها طوال اللّيل.. تكلّم الجميع.. تحادثوا وتناقشوا إلاّ واحدا فقط.. فَطِن أحمد للأمر فقال:

- فيم صمتكَ يا عبد اللّه؟ أ لم تضع خطّة مثلنا؟
- بلى وضعتُ خطّة مختلفة عن كلّ خططكم.. آمل أن تؤجّلوا اليوم كلّ حديث لأنّي سأنفذها وافقتم أم لم توافقوا.. وأنا متأكّد من نجاعتها..

همّ الجميع بمجادلته لكنّ أحمد الّذي استشعر نبرة خوف ممزوجة بتحدّ في صوت زميله وصديقه أسكتهم وقال له وكأنّه أدرك معنى ما قاله الفتى لكنّه أراد أن يتأكّد:

- ماذا تقصد؟ ما هي خطّتك يا عبد الله؟
- أنا اليوم.. أنا اليوم.. سأضحّي بنفسي فداء أرضي..
- هل تعني أنّكَ..
- أجل.. أنا من سيفجّر المعسكر..
- هل فكّرت جيّدا في ما ستفعله؟ عملكَ هذا يلزمه إرادة من حديد..
- وحبّ للبلد من فولاذ.. وقد فكّرت في الأمر كثيرا وقرّرت..
- قل إن شاء الله وتوكّل عليه.. لكن سنراك طبعا قبل تنفيذ العمليّة..
- بعون الله..

وانصرف عبد الله وتبادل الرّفاق النّظر وفي أعينهم دهشة سرعان ما انقلبت إلى إعجاب وفخر.. وتمنّى كلّ منهم في نفسه أن تكون له مثل شجاعة ذلك الفتى الّذي اختار الموت في سبيل بقاء وطنه..

وعاد أحمد إلى البيت فاستقبلته أمّه وعلى وجهها آيات الاستغراب قائلة:

- عدت اليوم باكرا على غير العادة.. خيرا يا ولدي..
- لا تخشيْ شيئا يا أمّاه..
- أرى حزنا يعلو وجهك.. وعبرات تُغْرق عينيك..

ثمّ اقتربت منه أكثر وقالت وقد تضاعف قَلقها:

- ماذا هنالك يا ولدي؟ أخبرني أرجوك..
- هذه هي آخر عمليّة سينفّذها.. سينفّذها زميل لنا..
- سيضحّي بنفسه؟
- أجل..

- ومن هو هذا الفدائيّ الّذي يستحقّ وساما على شجاعته؟ هل هو عزيز عليكَ إلى حدّ يجعلكَ تبكي لأجله؟ هل أعرفه؟

وربّما زلّ لسانه أو ربّما أشفق على نفسه من كتمان الخبر وأبى إلاّ أن تشاركه أمّه معاناته وربّما بلا وعي منه.. لسبب أو لآخر همس:

- إنّه عبد الله..

- ابن الخالة عائشة؟

طأطأ أحمد رأسه فتهالكت زينب على الكرسيّ.. كان أحمد يحبّ الخالة عائشة كثيرا ويحبّ ابنها أكثر.. كانت هي من شدّ أزر أمّه عند استشهاد آمنة.. لم تتركها آنذاك حتّى استقرّت حالتها النّفسيّة، واعتنت به حين كانت زينب طريحة الفراش تعاني النّوبات والاضطرابات الّتي كانت تنتابها حينما تذكر ابنتها.. كانت الخالة عائشة نِعْم الجارة والصّديقة الوفيّة للعائلة عامّة ولزينب خاصّة..

كانت هذه الأفكار تجول بخاطر أحمد حينما قطعت الأمّ الصّمت بقولها وعينها مثبتة على باب الدّار وكأنّها ترى شريط ذكرياتها يمرّ أمامها.. «لازلتُ أذكر ذلك اليوم الّذي فُتِح فيه هذا الباب ليكون القادم خبر وفاة فلذة كبدي.. ليقف على عتبته الأب حاملا بين يديه ابنته جثّة هامدة.. عندما رأيتُ ذلك المشهد اسودّت الدّنيا في وجهي ولم أفق بعدها إلاّ على صوت الخالة عائشة يواسيني وكفّها يمسح الدّمع من عينيّ.. يومها قُلتُ في نفسي: "يا لسخرية القدر.. نفس المرأة الّتي شهدت أوّل صيحة لآمنة عند ولادتها.. تأتي اليوم لتشهد آخر سكتة لها إلى الأبد" ولم يسكن لها صوت في هذا البيت ولم تهدأ لها حركة حتّى شُفيتُ أنا واستعدتُ صحّتي.. لازلت أذكر حينما جلست بجانبي وأخذت تحدّثني عن ابنها الأكبر الّذي استشهد في انتفاضة الحجارة.. يومها قالت لي: "كان بلال يبلغ من العمر خمسة عشر عاما حينما قصفه رشّاش صهيونيّ.. الآن لم يعد لي غير عبد الله كما لم يعُد لكِ غير أحمد.." كانت تتكلّم

والعبرات تخنقها فأدركتُ يومها أنّ مصائب قوم بلدنا مصائب مشتركة، وأنّ علينا أن نتقاسمها حتّى نقدر على تحمّل أعبائها الّتي تنوء لحملها الجبال»..

ثمّ صمتت فجأة وهبّت من مجلسها وكأنّها تذكّرت شيئا مهمّا..

- هل تقول أنّ ابنها..؟

فرفع رأسه وقد استشعر بخوفٍ ما تفكّر فيه:

- ماذا ستفعلين؟

- سأذهب إلى الأمّ المسكينة علّها تلحق ابنها وتعيده إلى صوابه قبل أن ينفّذ ما عزم عليه..

- لن تستطيعي فعل شيء.. عبد الله قرّر ولن يتراجع أبدا.. ليت لي نصف ما يمتلك من شجاعة لكنتُ اتّخذت نفس القرار..

- ماذا؟

آنذاك، انهمرت الدّموع على خدّيها وجلست على ركبتيها في استسلام وهي تلهج:

حرام عليكَ ما تفعله بي يا أحمد.. حرام عليكَ ما تفعله بأمّك.. هل تريد قتلي؟ حُرمتُ من أختكَ واليوم تتمنّى أن يحرمني الله منكَ؟ أرجوك لا تعد على مسمعي هذا الكلام مرّة أخرى.. أرجوك..

انحنى أحمد على أمّه ليساعدها على الوقوف ثمّ قال لها موليا وجهه عنها:

- لا تخافي.. لا تخشيْ شيئا.. لن أستطيع فِعْل ما سيفعله عبد الله.. أ تعرفين لماذا؟.. لأنّني جبان.. ابنكِ جبان.. فلتُزَغردي فرحًا..

فقطّبت المرأة حاجبيها وقالت:

- وهل صار البرّ بالأمّ جبنا؟

- الجُبْنُ هو أن نحبّ والدينا أكثر من وطننا..

- يمكنك الدّفاع عن وطنك واجتناب إيذاء نفسكَ قدر المستطاع..

قالت هذه العبارة وهمّت بالنّهوض من مجلسها، فاستوقفها أحمد وقد وخزه الخوف والقلق..

- إلى أين؟

- إلى غرفة النّوم حتّى أغيّر ملابسي وأقصد منزل صديقتي وجارتي الخالة عائشة..

- هل أنتِ جادّة فيما تقولين؟ كلاّ يا أمّي أرجوك لا تذهبي..

- ولِمَ يا ولد؟

- عبد الله.. عبد الله لن ينفّذ العمليّة قبل آخر النّهار.. لا تشغلي بال المرأة المسكينة.. سنحاول نحن إقناعه بالعدول عن فكرته..

- عجبا.. منذ لحظة واحدة كنتَ تدافع عن موقفه وتتمنّى أن تكون مكانه.. والآن تريد إثناءه عن عزمه؟ هل تُخفِي عنّي شيئا يا أحمد؟ لِمَ لا تريدني أن أعلم أمّه؟

- بصراحة.. ما كان عليّ أن أعلمك بالأمر من البداية.. لأنّها أسرار ولا يجب لأحد غيرنا نحن أن يطّلع عليها..

- أنتم؟ ومن تكونون؟

- لا يهمّ.. المهمّ أنّ ما ستفعلينه الآن لن يكون في صالحي..

- وما شأني أنا؟ عليّ واجب يجب أن أؤدّيه..

- حسنا.. لا يزال الوقت مبكّرا.. انتظري.. ستجدين الخالة نائمة.. إنّها الثّامنة صباحا.. أمّي..

كان يصرخ، وكانت تتصامّ.. كانت تغيّر ملابسها.. رغم تقدّمها في السّنّ، لم يتغيّر طبعها.. ظلّت عنيدة، لا تقتنع بسهولة، بل لا تقتنع أبدا.. وكان أحمد أكثر من يعرف ذلك..

وما هي إلاّ برهة حتّى خرجت من غرفة النّوم جاهزة للذّهاب.. وعندها طُرِقَ الباب.. دخلت هي المطبخ لتشرب كوبا من الماء كما اعتادت أن تفعل دائما قبل مغادرة البيت.. ثمّ اتّجهت صوب باب الدّار الّذي كان أحمد قد أقفله بعد لقائه

القصير بالطّارق.. همّت بفتحه من جديد ثمّ التفتت إلى ابنها قائلة:

- ربّما لن أعود قبل السّاعة..

ولم تُكمل كلامها.. لاحظت على ابنها شحوب وجهه وصمته المفاجئ فخفق قلبها وقالت له:

- ما بك يا أحمد؟

ثمّ تذكّرت طرق الباب.. تذكّرت الموت.. فأردفت تتساءل وكان قلبها يجيب على التّساؤل قبل أن تطرحه:

- من كان الطّارق؟

فرفع أحمد رأسه وقال:

- لا فائدة من ذهابكِ.. فات الأوان.. استُشْهِد عبد الله..

* * *

وتواصلت سلسلة الأحزان وازدادت حلقاتها ولم يكن استشهاد عبد الله آخرها، بل ذهب بعده كثيرون، لكنّ عبد الله كان الأخير بالنّسبة إلى عائلته الّتي فقدت قبله أخاه منذ أكثر من عشر سنوات.. والأدهى من ذلك أنّ عبد الله مات قبل أن يحقّق آخر أمنياته.. قبل أن يفجّر المعسكر..

عندما تفكّك شمل الأصدقاء وذهب كلّ إلى داره، أراد عبد الله أن يعود أدراجه إلى المسجد ليقضّي فيه بقيّة يومه.. لم يكن يرغب في الذّهاب إلى بيته إذ خشي أن تفضح ملامحه ما هو مُقدِم عليه.. خاف أن تكتشف أمّه الأمر بِمَا عهد لديها من ذكاء وفطنة وينهار بالتّالي كلّ ما بناه، فخيّر العودة إلى المسجد ليصلّي ويدعو الله كي يوفّقه في مهمّته.. كان يمشي في تؤدة ولم يكن يدري أنّ حتفه يعدو خلفه.. فجأة، صدمه طفل صغير كان يجري بأقصى سرعته هربا من رشّاش أحد الجنود وكان الجنديّ يركض خلفه وقد بلغت ثورته ذروتها.. وعندما انقطعت أنفاسه، رفع بندقيّته على كتفه كآخر محاولة منه للاقتصاص من الصّغير الّذي صار منه على بُعْدِ أمتار.. أدرك عبد الله عند ذلك أنّ الطّفل ميّت لا محالة.. وبدون تردّد، وقف

أمامه حتّى يحميه فتلقّى صدره الرّصاصة وفرّ الصّغير بعد أن كُتِب له عُمر جديد.. وكُتِبت لعبد الله الشّهادة..

عندما علمت الخالة عائشة بنبإ وفاة ابنها لم تُفاجئ ولم تذرف دمعة واحدة.. كانت تقول أنّ مآقيها جفّت من الدّموع.. دموع ذرفتها على بلال بعد أن استُشْهِد ودموع ذرفتها على عبد الله قبل أن يستشهد.. كانت تحسّ بقلب الأمّ أنّ ابنها الوحيد الّذي بقي لها قد بدأ يتسرّب من بين أحضانها كما يتسرّب الماء من بين أصابع كفّ اليد.. كانت تحسّ أنّه صار منذ سنوات يسير في التّيّار الّذي جرف أخاه.. كثيرا ما حاولتْ ردّه عن ذلك الطّريق لكنّها لم تُفلح فسلّمت أمرها لله وحمدته لأنّه غرس في قلب ابنها حبّا للوطن لا مثيل له.. كانت تبتسم في مرارة وتقول «كنتُ أنتظر خبر وفاته بين لحظة وأخرى.. في المدّة الأخيرة، صرتُ أرى في عينيه نظرة غريبة توجّستُ منها خيفة ولم أعرف كُنْهها إلاّ الآن.. كانت نظرة تحدٍّ خالطه خوف.. وبعد أن عرفتُ أنّه كان ينوي التّضحية بنفسه لتفجير معسكر الأعداء زاد فخري به.. انتفاضة الحجارة خطفت منّي الأوّل وهاهي انتفاضة الأقصى تخطف منّي الثّاني.. وكلّه يهون فداء الوطن.. أ تعرفون؟ منذ أن توفّي بلال وبعده المئات من أبناء البلد صرْتُ أحسّ أنّ قلبي تصلّب.. أنّه صار من فولاذ.. من كثرة الأحزان الّتي مرّت بي لم أعد أعرف للفرح معنى.. صِرْتُ معتادة على الحزن وصرتُ أعرف أنّ الدّنيا تقسم أحزانها بين النّاس بالتّساوي، لكلّ فرد نصيب و"لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ".. من الآن لم يعد اسمي عائشة بل صار "أمّ الشّهيدين"» قالت هذه العبارة ونزلت على خدّها دمعة كانت آخر ما تبقّى في مآقيها..

* * *

عاد أحمد مع أمّه إلى الدّار وقد كست وجهيهما مسحة من الألم والحسرة.. تهالكت زينب على الكرسيّ وقالت:

- كنتُ أودّ المكوث معها.. كنتُ أريد أن أردّ لها ولو جزءا بسيطا من معروفها.. لكنّها لم ترضَ..

- صرتُ أرى أترابي يتساقطون الواحد تلو الآخر أمام عينيّ.. منذ شهر استُشهِد جهاد، ومنذ أسبوع استُشهِد خالد، واليوم نودّع عبد الله.. ما هذه الدّنيا الّتي لا ترحم؟

- كلاّ يا ولدي.. ليكنْ إيمانكَ بالله قويّا ولا تَقُلْ غير "إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونْ" هكذا فقط تستطيع أن تصبر على مصائب الزّمن..

- ليست مصائب زمن بل هي أيدي العدوّ تحفر كلّ يوم حفرة سوداء في قلبِ وطنيٍّ.. ولا بدّ أن نقتلع هذه الأيدي من قلوبنا حتّى وإن كلّفنا ذلك أبهظ الأثمان..

- إلاّ حياتكَ يا أحمد.. إلاّ حياتكَ..

نظر أحمد إلى أمّه في شفقة فوجد في عينيها دموعا لم تقدر على مسكها طويلا فانحدرت على خدّيها، فارتمى في حضنها وقال لها:

- لا تخافي عليّ يا أمّاه.. إن حلّ أجلي فسيكون ذلك بأمر الله..

فأجابت زينب في إيمان:

- وأنا راضية بنصيبي خيره وشرّه..

وقطع حديثهما صوت عبد السّلام قادما من حجرة النّوم:

- أين كنتما منذ الصّباح؟ حال استيقاظي لم أجِد أحدا في البيت..

فنظرت زينب إلى ابنها في فزع وقالت له:

- يا إلهي! نسيتُ والدك.. لعلّه لم يتناول شيئا منذ الصّباح..

- ومن له شهيّة الأكل اليوم يا أمّاه؟

- أ لا تريد أن أطبخ لكَ شيئا حتّى تتغدّى مع والدك؟

- غداء؟ إنّها السّادسة مساء يا أمّي.. ثمّ إنّي لا أرغب في الأكل.. سأخلد للنّوم..

وعندما أغلق أحمد باب غرفته أطلّ عبد السّلام من حجرة النّوم.. كما هو منذ خمس سنوات.. لم يغيّر فيه الزّمن شيئا سوى لون شعره الّذي ابيضّ ولم تبق في رأسه إلاّ بضع

شعيرات سود.. بل إنّ من يراه يظنّه قد ازداد قوّة، وكأنّ قسوة الأيّام لم تعلّمه غير الصّلابة والجَلَد.. وكأنّ موت آمنة بين ذراعيه غَرس فيه الصّبر ولقّنه معنى الإيمان الحقيقي فقدر على مجابهة المصائب الّتي مرّ بها البلد، بل إنّه كثيرا ما وقف إلى جانب زوجته الّتي كانت تنهار بسهولة عند كلّ أزمة تعترضها..

جلس أمامها وهي تهمّ بالوقوف لإعداد الطّعام وقال لها:

- لا داعي لإعداد الطّعام.. على رأي أحمد، من له شهيّة الأكل اليوم؟

- هل علمتَ؟

- أجل.. فتى في ريعان الشّباب تخطفه الموت وهو في طريقه إلى المسجد..

- ومن أخبركَ؟

- على السّاعة العاشرة صباحا أتى جارنا جابر إلى هنا وأعلمني بالأمر.. ومن ثمّة ذهبنا سويّة إلى بيت الشّهيد حتّى نقوم بواجب العزاء وغدا سنسير إن شاء الله في جنازته..

- لم يخطفه الموت بل خطفته الأيادي الّتي خطفت منّي ابنتي..

- أ تعرفين؟ لقد بتّ أخاف على أحمد كثيرا.. قلبي يقول لي أنّ دوره قادم قريبا..

- لا تقلْ هذا ثانية أرجوك.. أنت تعرف كم أكره الحديث في مثل هذه الأمور..

- لا تخافي يا امرأة، إنّه مجرّد حديث ليس إلاّ..

- وإن يكن.. أنا أعتبره نذير شؤم..

- إن كان عليّ فأنا أتمنّى أن أموت قبل أن أشهد هذا اليوم..

نظرت إليه زينب نظرة عتاب واستنكار ودسّت وجهها بين كفّيها ونهضت مسرعة إلى حجرة النّوم يسبقها صوت بكائها.. وارتمت على الفراش وأخذت تنتحب حتّى غلبها

النّعاس فنامت نوم من يريد أن يجنح إلى أحلامه علّها تكون أحلى من واقعه المرّ..

أمّا أحمد، ففور دخوله إلى غرفته جلس على فراشه يسترجع ذكرياته وأيّام صباه مع عبد الله.. تذكّر كيف كانا يصنعان الطّائرات والسّفن الورقيّة فيجريان بالطّائرات في بطحاء الحيّ ويضعان السّفن في أحواض مملوءة ماءً فيرسمان على إحداها علم بلدهما ويسيّرانها في عزّة وشموخ ويرسمان على الأخرى علمَ إسرائيل ثمّ يثقبانها ويثقلانها بالحجارة فتغرق حتّى تصل إلى قعر الحوض.. كانا منذ نعومة أضفارهما مولعين بالبلد وبالسّياسة رغم أنّهما لم يعرفا عنها إلاّ حديث أمّيهما ولم يفهما منها إلاّ ضرورة إخراج العدوّ من أراضي الوطن العزيز.. وكان أحمد يحبّ عبد الله كثيرا ورغم أنّ عبد الله كان يكبره بثلاث سنوات إلاّ أنّ من يراهما يخالهما توأمين.. دار كلّ هذا بخلَد أحمد ودموعه تنزل على خدّيه مدرارا.. دموع أخفاها عن عبد الله حينما أعلمه بقرار استشهاده، وعن أمّه حينما عَلِمَ بموت صديقه، وعن الخالة عائشة حينما ذهب لتعزيتها.. كلّها دموع تراكمت في صدره ثمّ طَفِرت من أحداقه كي تُفيض الكأس الّتي ملأها موت أخته من سنين.. فلم يملك إلاّ أن مسح وجهه بكفّيه وقال في نفسه وفي نظراته تصميم «لن أبكي كثيرا يا عبد الله.. سأثأر لكَ.. ولآمنة»..

* * *

وعندما أشرقت شمس اليوم التّالي، استيقظت زينب على صوت باب الدّار يُقفل فنطّت صورة ابنها بذاكرتها وانتابها القلق فأيقظت زوجها وقالت له:

- استيقِظْ يا عبد السّلام..

فقام الرّجل مفزوعا وهو يغمغم:

- ما به؟ هل مات؟ هل مات؟

فناولته المرأة كوبا من الماء وهي تبسمل فشرب وأعاد لها الكوب وهو يُتمتم:

- أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم.. كان حلما مرعبا رأيت فيه..

فقاطعته متلهّفة:

- لا يهمّني ما رأيته في حلمكَ.. لقد خرج أحمد..

- وماذا بعدُ؟

- افتح عينيكَ يا رجل واسمعني جيّدا.. أنا خائفة عليه.. لا أدري إلى أين ذهب..

فهمّ الرّجل بالعودة إلى النّوم وهو يقول:

- حرام عليكِ.. تفزعينني من نومي لتقولي لي هذا الكلام؟ عودي، عودي إلى نومكِ.. ابنكِ ذاهب الآن إلى المسجد، ثمّ سيلاقي أصحابه..

- وأنتَ لا تعرف أنّ خوفي كلّه متأتٍّ من أصحابه الّذين دفعوا بعبد الله إلى الهاوية ويريدون الآن..

- حرام عليكِ.. إنّما الأعمار بيد الله.. الفتى حضر أجله فمات ولم يكن هذا بسبب أصدقائه وأنت تدركين هذا تمام الإدراك.. غير أنّكِ تريدين دائما البحث عن شيء يشغل بالكِ.. ولو أراد الله أن ينهي عُمُر أحمد هو الآخر فسينهيه سواء شئتِ أم أبيْتِ خِفتِ أم بكيْتِ.. أستغفر الله العظيم.. تصبحين على خير..

لم يكن عبد السّلام يدري أنّ الصّبح قد أشرق.. كما لم يكن يدري أنّ زينب –وكالعادة- لم تقتنع أبدا بكلامه، لهذا ظلّت جالسة تفكّر وتفكّر في ابنها الّذي ربّما عاد وربّما لم يَعُدْ..

وبقيت على مجلسها ذاك سويعة سمعت بعدها طرقا خفيفا على الباب، وتسارعت دقّات قلبها وأخذ صدرها يرتفع وينخفض.. وتواصل الطّرق، لكنّه بات أعنف هذه المرّة.. أمسكت المرأة رأسها في حركة هستيريّة ولم تملك إلاّ أن صرخت في زوجها النّائم حذوها:

- استيْقِظ يا عبد السّلام.. استيقِظْ أرجوك..

- ما بِكِ ثانية؟ أ لن تهمدي يا امرأة؟

- أسمع صوت طرق على الباب..

- فلتفتحي إذن..
- كلاّ.. ليس مرّة أخرى.. قلبي يحدّثني أنّه أحمد.. أنّه.. كلاّ.. كلاّ لا يمكن..

وأخذت تمسك برأسها وتصرخ.. فنهض عبد السّلام ليهدّئ من روعها، لكنّ الطّرق المتزايد لم يمهله.. فقام من فوره وهمّ بفتح الباب، فسمع صوتا من الخارج يقول:

- افتحْ يا عمّ عبد السّلام.. أنا إسماعيل صديق أحمد.. بسرعة..

فتح الرّجل الباب فرأى أحمد مستندا إلى كتف صديقه وذراعه تنزف.. فهُرِعَ وأدخلهما الدّار وهو يقول:

- ما الّذي جرى؟ متى حدث لكَ هذا يا أحمد؟

وما إن همّ إسماعيل بالحديث حتّى قَدِمَت زينب تُهَرول مفزوعة إلى ولدها، فقال لها عبد السّلام:

- اجلبي الضّمادات والدّواء حتّى نوقف النّزيف.. هيّا أسرعي..

فلم تملك المسكينة إلاّ أن تنفّذ ما أمرها به زوجها.. وعندها قال إسماعيل:

- لا تخافا.. الجرح بسيط.. إنّه مجرّد خدش برصاصة.. الحمد لله الّذي نجّاه من موت حدّق به.. لولا الصّدفة الّتي رمت بشاحنة عطّلت الجنديّ عن اللّحاق بنا.. وعندما أراد التّصويب من بعيد لم يُصِب الهدف..

وعندها نطق أحمد..

- عمر الشّاقي باقي..
- وأيّ شقاء هذا الّذي كُتِبَ علينا يا صاح..
- إنّ الله أراد أن يطيل عمري حتّى أشفي غليلي منهم..
- أظنّ أنّ الاستعمار سيسحقنا واحدا بعد آخر قبل أن يغادر الوطن..
- لا يهمّ.. سيأتي بعدنا من يكمل الطّريق إلى النّهاية..

* * *

وبعد الغداء، انصرف إسماعيل إلى بيته وعبد السّلام إلى دكّانه ولم يبق غير أحمد وزينب في البيت.. كان الصّمت يخيّم عليهما.. كانت تعدّ بعض الشّاي وهو قبالتها يتصفّح جريدة قديمة.. كان ممسكا بالجريدة لكنّه لم يكن ينظر إليها بل كان نظره شاردا إذ كان يفكّر فيما ستقوله له أمّه بعد أن صار أمامها وجها لوجه.. وبينما هو مستغرق في أفكاره إذ بها تمدّه بكوب من الشّاي وكأنّها تعلن بذلك بداية التّواصل بينهما.. أخذه من يدها ونفخ على سطحه حتّى يبرد ثمّ رشف منه وقال لها مقطّبا جبينه:

- إنّه مرّ.. أ نسيتِ وضع السّكّر يا أمّي؟

- لن يكون أمرّ ممّا نحن فيه..

- ما نحن فيه مرّ.. لِذا نضع السّكّر في الشّاي.. على العموم، شايكِ لذيذ حتّى وإن لم تضعي فيه الماء.. يكفي أنّه من صنع يديكِ يا أعزّ مخلوق في الدّنيا..

- أشكركَ..

- وعلامَ تشكرينني؟ أنا لا أجاملكِ.. ما بكِ يا أمّي؟ هل أنتِ غاضبة منّي؟

- لا أبدا.. وما الّذي يدعوني للغضب؟ أنتَ تسمع كلامي.. وتنصت لرجائي وتطبّق نصائحي.. ولم تخرج اليوم من المنزل.. ولم يُطْلِق عليكَ جنديّ رصاصة.. ولم تكن على قيد أنملة من الموت..

- أنا أعرف أنّكِ خائفة عليّ.. أنا أعرف أنّك لا تملكين غيري.. كما أعرف أنّك لا تنامين اللّيل وأنّ قلبك يرجف دائما لأجلي.. وأنا أستطيع أن ألبّي لكِ كلّ ما تطلبينه منّي.. لو تطلبين منّي عينيّ أقدّمها لكِ.. لو تطلبين منّي قلبي أقتلعه من صدري وأعطيكِ إيّاه.. لو تطلبين منّي روحي فهي فداكِ.. لكن لا تطلبي منّي أن أكون جبانا، أو أن أكون وطنيّا وأنا نائم في حضنكِ وكأنّني طفل صغير أو مُخْتَفٍ وراء ستائر البيت أرقب من بين الثّقوب أترابي يجاهدون في سبيل أرض الوطن.. سأحسّ عندها أنّني سجين خلف قضبان خوفكِ عليّ في حين

أنّ أصدقائي يتمتّعون بحرّية الدّفاع عن البلد.. سأحسّ بالغربة وسأحتقر نفسي قبل أن يحتقرني الآخرون.. وسأخجل من آمنة وعبد الله وغيرهم من الأحبّاء الّذين سلّموني ومن بقي من أترابي المشعل حتّى نكمل طريق النّضال..

عندها أخذتهُ زينب في حضنها وهي تقول:

- كان عليّ أن أفخر بكَ لا أن أغضب منكَ.. لكن..

فقطع كلامها قائلا:

- أعرف أنّك لم تقتنعي وأنّك لن تستغني عن خوفك هذا لأنّه خصلة فيكِ..

كان أحمد على صواب إذ أنّ زينب كانت كثيرة الخوف.. حتّى في طفولتها، كانت تكره أصوات الشّاحنات إذ تخالها دبّابات، وكانت تكره ألعاب العيد الّتي كان يشتريها والدها لأخيها وخاصّة منها المسدّسات والبندقيّات.. كانت تتخيّلها حقيقيّة فتجهش بالبكاء حين تسمع صوت طلقاتها.. سكن هاجس الخوف من الحرب قلبها منذ الصّغر وازداد قوّة بمشهد موت والدها وانقلب مرضا نفسيّا بعد وفاة ابنتها، ومنذ مدّة، صارت الدّموع تنزل من عينيها لا شعوريّا حين تحسّ بالفزع.. وعندما أعلم عبد السّلام صديقه الطّبيب النّفسي الّذي يتابع حالتها بما آل إليه وضعها طمأنه الطّبيب بأنّ الدّموع هي ردّة فعل جيّدة كنتيجة للفزع لأنّها تُعْتَبَر متنفّسا لِمَا قد تشعر به من خوف باطنيّ، لكنّه لم يُخْفِ عنه خشيته أن تتدهور صحّتها إن تعرّضت لصدمة أخرى شبيهة بما صادفها من قبل وأن تنقلب حالتها النّفسيّة إلى حالة عضويّة.. لذلك كثيرا ما ترى عبد السّلام يحاول أن يمهّد لها الأرضيّة بتقوية إيمانها حتّى تستطيع تقبّل الأزمات.. المتوقّع منها وغير المتوقّع..

* * *

ومكث أحمد يوما آخر بالبيت ولم يُطِق بعدها البقاء أكثر فخرج للقاء أصحابه حتّى قبل أن تشفى ذراعه كما يجب.. وبقدر ما كانت زينب كثيرة الخوف بقدر ما كان أحمد كثير الإصرار والتّحدّي والشّجاعة، ولولا ما تميّز به من هذه

الخصال لما قدِر على الانخراط في مجموعة النّضال هذه ولما حاز على ثقتهم وإيمانهم بقدراته.. لم يكن شيء يعسر عليه.. كان يحاول ويحاول حتّى يصل إلى أصلح الوسائل لطرد العدوّ من أرض بلاده.. حتّى صار بأبسط الأدوات وبقوّة العزيمة قادرا مع أترابه على فِعْلِ ما لم تفعله رشّاشات الأعداء ودبّاباتهم.. فكما اجتهد في الماضي مع عبد الله في صناعة ألعابه، صار الآن يجتهد لوضع خطط تساعده على الفوز في هذه اللّعبة الكبرى.. لعبة الجهاد في سبيل الأرض..

وكلّما اختلى بنفسه تراءى له بين عينيه مشهد موت أخته وأعزّ أصدقائه وترامى إلى سمعه كلّ الحديث الّذي كانت أمّه تحكيه عن استشهاد أقرب النّاس إليها وفي صوتها مرارة الذّكرى.. كلّ هذا كان يشحذ عزيمته أكثر فأكثر ويقوّي إصراره ويدفعه إلى السّير قُدُمًا في طريق النّضال ضدّ المستعمر.. وكلّما سقط واحد من الأعداء خُيِّل له أنّ المسافة قد بدأت تقصر بينه وبين النّصر.. وكان في الوقت نفسه يعرف أنّ موت جنديّ واحد من هؤلاء كان يجرّ وراءه استشهاد العشرات من بني وطنه لكنّه رغم ذلك مُدْرِكٌ أنّ لكلّ شيء ثمنا وأنّ ثمن الحرّية باهظ جدّا..

كان يتمنّى لو اتّخذ مرّة قرارا كالّذي اتّخذه من قبلُ عبد الله ولم يستطع للأسف تنفيذه.. لوهلة ما فكّر في أن يحقّق له ما اشتهاه قبل وفاته لكنّه تراجع، لا حرصا على برّه بأمّه ولا خوفا على نفسه من الموت بل لأنّه كان يريد أن يرى بعينيه سقوط الأعداء واحدا تلو الآخر وأن يعيش ليحارب، ولم يكن يبغي التّضحية بنفسه لنسف ثلّة منهم فقط.. كما كان يرغب أن يشهد ذلك اليوم الّذي يتطهّر فيه بلده من تلك الأيادي الآثمة..

هكذا ترك أحمد الدّراسة والمدرسة ليتفرّغ إلى تحقيق هذا الهدف الّذي كان يصبو له كلّ الشّعب.. صغيره وكبيره.. وهذا ما ضاعف خوف الأمّ على ابنها إذ كانت دائما تقول له:

- وما شأنك أنت يا ابني بمشاكل البلد؟ أنت لا تزال صغيرا..

- أنا صغير؟ وما دُمتُ أنا صغيرا وكلّ أترابي صغارا، من سيحارب إذن؟ من سينقذ البلد؟ أنتم الكبار؟ أم أنّنا سنطلب مساعدة الدّول الأخرى الّتي بالكاد تعترف بوجودنا كبلد مستقلّ بذاته؟ إنّنا جيل انتفاضة الحجارة يا أمّي.. ثمّ من سيأخذ بثأر أختي؟ من سيأخذ بثأر صديقي؟ من سيأخذ بثأر الشّهيد محمّد الدّرة الّذي أسلم روحه بين ذراعيْ والده كما حدث لآمنة.. وبثأر كلّ الشّهداء الّذين دفعوا حياتهم ثمنا غاليا من أجل الوطن؟ لو تخلّينا عن بلدنا سنكون قد تخلّينا عن عِرْضنا.. وأنا لا أقبل هذا على نفسي أبدا..

- لكنّك تخلّيت كذلك عن دراستك وبتّ تهملها..

- الدّراسة لن تعلّمني منهج إخراج الغريب من أرضي.. ومن دخل بالقوّة لن يخرج إلاّ بالقوّة..

كان هذا النّقاش دائم التّكرار بين زينب وابنها وكان هو دائما ينهيه بمغادرة البيت وتنهيه هي بالدّموع.. لم تيأس أبدا ولم تقُل يوما في نفسها ألاّ فائدة من إقناعه بالعدول عن القرارات الّتي يتّخذها.. كانت دائما تحاول السّيطرة عليه بل كانت تظنّ أنّه لولاها لقام بمثل ما كان سيقوم به المرحوم عبد الله، ولم تكن تدري أنّ عقله هو الّذي يملي عليه كلّ تصرّفاته بغضّ النّظر عن برّه بوالديه وأنّ قلبه قد دُفِن مع أحبّ شخصين على نفسه.. أخته وصديقه..

* * *

III

بمرور الأيّام، اعتاد أحمد عمليّات الهجوم والهروب.. اعتاد مواجهة العدوّ وجها لوجه.. اعتاد أن يطلق عليه قنابله الّتي شحنها بكلّ ما يحمل من نقمة وحقد وكراهيّة.. لم تكن كراهيّة موجّهة لشخص بذاته، بل كانت كراهيّة إنسان مسلوب الإرادة لجيش بأكمله خطف منه أهمّ الأشياء في حياته وسرق منه أبسط الحقوق.. اعتاد أحمد هذه الكراهيّة اعتياده الرّكض بين الأزقّة فرارا من أحد الجنود.. حتّى أتى ذلك اليوم..

استيقظ صباحا من نومه، وكالعادة غسل وجهه، حلق ذقنه، توضّأ وصلّى الصّبح، قرأ بعض الأدعية ثمّ توجّه إلى المطبخ لتناول الفطور.. شرب كوبا من الحليب مع قطعة صغيرة من الخبز، ثمّ دخل غرفته وغيّر ملابسه واستعدّ للمغادرة.. وعندما خرج من الحجرة، وجد أمّه واقفة أمامه وهي تعدّل منديلها فوق رأسها وآثار النّوم القليل ما تزال عالقة بأجفانها، فابتسم وقال لها مستغربا:

- صباح الخير يا أمّي.. ما الّذي أيقظكِ باكرا؟ خيرا إن شاء الله.. هل تودّين أن أجلب لكِ شيئا من السّوق أو..

- السّوق مقفل اليوم..

- أنا آسف.. لقد نسيتُ أنّ اليوم..

- كلّ الأيّام اختلطت في نظركَ.. ما دامت عينكَ تقع على نفس المشاهد كلّ يوم.. قنابل وجري وخوف.. أمّا أنا فأظلّ أرقب عودتكَ بفارغ الصّبر و..

- لا داعي لهذا الكلام يا أمّي.. إنّها عادة دأبتُ عليها منذ مدّة وقد تعوّد الكلّ عليها.. فما الّذي جدّ اليوم؟

- ما جدّ هو أنّ قلبي اليوم غير مطمئن.. بتّ البارحة أتقلّى على نار الخوف والقلق..

- ومنذ متى كنتِ مطمئنّة يا أمّي؟ أرجوكِ دعيني أنصرف إلى شؤوني.. ولا تخشيْ شيئا، فإن عدتُ فهذا من فضل الله وإن لم أعد فهذا من فضله أيضا..

قال هذه الكلمات وغادر البيت تاركا زينب واقفة كالتّمثال، شاحبة الوجه، متصلّبة الأطراف، إلاّ دمعها، كان يسيل على خدّيها مدرارا..

لم يهتمّ أحمد بكلام أمّه إذ كان قد تعوّده هو الآخر، بل حفِظَه ولم يعد يؤثّر فيه.. والتقى أصحابه كعادته، وبينما هم واقفون هكذا حتّى شاهد أحمد على بُعْدِ مائتي متر من موقفهم شاحنة تكدّس فيها الجنود فهتف وفي عينيه يلمع بريق الظّفر..

- أولئك هم هدفنا اليوم..

وانطلق كلّ إلى جهته وقصد أحمد تلة صغيرة على مقربة من المكان الّذي استقرّت فيه الشّاحنة فرأى الجنود واقفين أمام باب مسكن.. كانوا يطرقون الباب بقبضاتهم ثمّ ركله أحدهم برجله فانفتح على مصراعيه.. دخل جميعهم عدا واحدا ظلّ يحرسهم في الخارج.. يبدو أنّهم دخلوا يفتّشون عن شخص بعينه.. وقبل أن يُكْمِلوا البحث في الدّاخل خطرت للفتى فكرة قرّر على الفور تنفيذها.. قرّر النّيل من ذلك الجندي الّذي يحرسهم.. أخذ القوس وجذب من حزامه خنجرا وضعه مكان السّهم.. وضع الهدف بين عينيه وصوّب فاستقرّ الخنجر في رجل الجنديّ الّذي صرخ صرخة قويّة أفزعت زملاءه الّذين كانوا في الدّاخل.. خرج أحدهم يستجلي حقيقة ما حصل فرأى الرّجل واقعا على الأرض يتلوّى من شدّة الألم وهو يشير ببنانه نحو الجهة الّتي انبعث منها الخنجر.. وعندما نظر الجنديّ، وجد خيالا يركض على مبعدة منه.. كان خيال أحمد وهو ملثّم بقماش ارتسمت عليه مربّعات سوداء وبيضاء.. لم يفكّر الجنديّ في زميله الّذي كان طريح الأرض يطلب النّجدة بل كان أوّل ما بدر إلى ذهنه لحظتها أن يلحق بذاك الشّبح الّذي بات عنصرا مُهدّدا لأمنهم.. أخذ يركض خلفه والبندقيّة في يده، لم يكن يستطيع التّصويب إذ أنّ مجرّد وقوفه كان يعني غياب أحمد عن ناظريه.. كان الفتى يجري بسرعة جنونيّة هربا من الموت، ودخل شارعا لا يعرفه جيّدا.. لم يكن آنذاك يستطيع التّمييز بين الأنهج ولم يكن عقله قادرا على التّفكير إلاّ

في المصير الّذي ينتظره لو توقّف لحظة واحدة عن الرّكض.. كان يجري ولا يعرف أيّ اتّجاه يقصد ولا إلى أين هو ذاهب.. استحالت الدّنيا في وجهه ظلاما واسودّ ذلك الصّباح المشرق.. أخذ يعدو حتّى وصل إلى نهج يتفرّع إلى زُقاقين.. توقّف لهنيهة مُحتارا أيهما يختار ثمّ بسمل وركض نحو الزّقاق الّذي كان على يمينه.. أخذ يجري ويجري حتّى وصل.. وصل إلى حائط.. كان الزّقاق مسدودا.. ارتعشت ركبتاه ووقف لا حول له ولا قوّة.. كان مدركا أنّ ذاك الجنديّ كان وراءه، وأنّه رغم كلّ المحاولات والجهد الجهيد الّذي بذله لم يستطع تمويهه أو خداعه وكأنّ الجنديّ كان مصرّا على النّيل منه.. وهاهي الفرصة قد أُتيحت له.. في تلك اللّحظة فقط عرف أحمد صعوبة الموت، خاصّة إن كان ينتظره.. فكّر في العودة من ذلك الزّقاق لكنّه تخيّل نفسه وهو يخرج ليجد الجنديّ واقفا أمامه وهو يقول «اختر ميتتك يا عزيزي».. ارتعدت فرائصه واصفرّ وجهه وتصبّب العرق من جبينه، وما كانت إلاّ مقدّمات لنهاية أكيدة.. النّهاية الّتي تربّصت بأخته وبصديقه.. ولكنّها كانت بالنّسبة إليهما فجئيّة لم يتوقّعاها.. باغتتهما فلم يتألّما منها كثيرا، أمّا اليوم، فهاهي تتربّص به وهو واقف ينتظرها وكأنّه مجرم ينتظر تنفيذ حكم الإعدام.. هاهو يتذوّق ألمها ويرشف كأس عذابها حتّى الثّمالة.. في تلك الدّقيقة أحسّ أنّه مات ألف مرّة قبل أن يموت حقيقة.. في تلك الآونة فقط تذكّر كلام أمّه وتحديدا منه قولها «قلبي اليوم غير مطمئنّ».. عنت له تلك العبارة في تلك اللّحظة الكثير.. تذكّر كلّ خوفها عليه منذ كان ابن خمس سنوات وحتّى صبيحتها.. تذكّر رجاءها منه دوما أن يبتعد عن ذلك الطّريق.. تذكّر دموعها الّتي لم تكن تجفّ.. كان دائما يقول لها أنّ قلقها عليه مبالغ فيه.. لكنْ.. ها قد تبيّن أنّ كلّ مخاوفها كانت في محلّها.. كان دائما يقول لها أنّ الموت والحياة بيد القدير وحده.. وهاهو الآن وهو في مواجهة الموت الّتي كان يتحدّث عنها ببساطة كقصبة في مهبّ الرّيح، كالغريق الّذي يمسك بقشّة ويظنّها ستنقذه.. اتّضح له وهو

يرجف خوفا من الموت الّتي لم يكن يهابها أنّ النّفس البشريّة - ومهما بلغت من الإيمان- لا بدّ ستضعف وستقف وقفة وجِلَة أمام النّهاية.. وأنّه شتّان ما بين الحديث والمواجهة الحقيقيّة.. لكنّه في الآن ذاته لم يكن نادما على ما هو فيه بل فخورا وكان كلّ همّه أمُّهُ الّتي لا يستطيع تصوّر حالتها حال غيابه عن ناظريها إلى الأبد، وهي الّتي استشعرت بقلب مرتجف الخطر الّذي سيحدق به وحاولت إنقاذه منه في اللّحظة الأخيرة قبل أن يغادر البيت لكنّها وقفت أمام ابنها كالعادة عاجزة عن صدّ عناده أو ردّه عن قراره..

وما هي إلاّ هنيهة، حتّى سمع وقع أقدام تسير في النّهج الّذي أتى منه.. وبحركة فطريّة التفت حوله وبحث عن أيّة ثغرة أو باب في الحائط ينجو منه، لكنّه لم ير إلاّ ثلاثة جدران عالية لا يمكنه حتّى تسلّقها.. أحسّ بألاّ فائدة من محاولاته.. وضع يده على صدره وتلا سورة الفاتحة ونطق بالشّهادتين مستعدّا لقدره، وفي عينيه، لمعت دمعة الوداع.. في تلك اللّحظة، تراءت له أمّه وهي تسلّم بعد أن فرغت من أداء فريضة الصّبح وجلست تبتهل إلى القدير أن يحمي ابنها من كلّ سوء.. وعندها، سمع صوتا خافتا وراءه ينادي:

- هاي.. يا أخ..

التفت من فوره إلى مصدر الصّوت ونزل ببصره إلى الأرض فرأى عينين تطلاّن من تحت غطاء صخري ثقيل.. انحنى ورفع الغطاء فإذا هي فتاة تهمس:

- هيّا.. انزل إلى هنا.. إلى هذا الدّهليز..
- من أنتِ؟
- بسرعة.. لا تُضِع الوقت.. هيّا أسرع..

لم يتردّد أحمد كثيرا، كان ظهور الفتاة طوق النّجاة الوحيد الّذي يمكن أن ينقذه من الورطة الّتي وقع فيها.. وما هي إلاّ ثوان حتّى استقرّ في الدّهليز وأعاد الغطاء مكانه مرتقبا ما سيحدث بعدها.. جلسا كاتمين أنفاسهما حتّى تناهى إلى سمعهما وقع أقدام الجنديّ تتجوّل في الزّقاق وتقطعه فوق رأسيهما.. ثمّ

سمعا ابتعاده عن المكان بعد أن تأكّد أنّ الفتى قد ذهب من الزّقاق الثّاني.. تنفّسا الصّعداء، وعند ذلك نظر أحمد إلى البنت ثمّ تمتم:

- أنا..
- لا داعي لأن تشكرني..
- لكنّكِ أنقذتِ حياتي..
- أنا لم أفعل شيئا.. إنّه واجبي..
- لكن، كيف عرفتِ بوجودي هنا؟
- كنتُ على سطح المنزل أنشر الغسيل، سمعتُ صوت ركضكَ ورأيتكَ تدخل الزّقاق دون علم منكَ بأنّه مسدود.. ولمحتُ جنديّا يركض خلفكَ فأدركتُ حقيقة الأمر ونزلتُ بسرعة إلى الدّهليز حتّى أفتح لكَ منه منفذ النّجاة..
- أنا فعلا..
- قلتُ لكَ لا تقُلْ شيئا.. اسمع، لا يجب أن تخرج من هذا المنفذ مرّة أخرى.. تعال سأخرجك من باب المطبخ.. إنّه قريب من هنا..

خرج أحمد، تتقدّمه الفتاة.. ألقت نظرة على الطّريق فوجدتها خالية إلاّ من بعض المارّة.. أشارت إليه بالخروج ثمّ استوقفتهُ قائلة:

- اتّجه إلى بيتِكَ وغيّر ملابسك هذه حتّى لا يتعرّفوا عليكَ مجدّدا..

أومأ أحمد برأسه دليلا على موافقتها ثمّ صافحها قائلا بكلّ امتنان:

- شكرا لكِ..

* * *

وقفت آلين ترقب أحمد حتّى غاب عن ناظريها ثمّ دخلت المطبخ وأغلقت عينيها وهي متّكئة على الباب.. وما إن فتحتهما حتّى رأت جورج واقفا أمامها ففزعت واضطربت لكنّها لم تُشعِره بارتباكها ذاك.. فهمت من وراء وقفته تلك بحُكمِ فطنتها وتعوّدها عليه أنّ الشّكّ قد أخذ يُداخله، وأنّ نظرته

لها تفضح اتّهاما رهيبا، وأنّ دخوله على حين غرّة إلى المطبخ يدلّ على أنّه ربّما اكتشف حقيقة الأمر أو جزءا منها.. لكنّها رغم كلّ ما خمّنته لم تُرِدْ مواجهته بل خيّرت استكمال الهدنة الّتي عقدتها معه منذ الشّجار الّذي قام بينهما ليلة البارحة..

- صباح الخير يا جورج.. هل تحسّ بالجوع؟ هل..
- قولي صباح الخيانة والغدر..
- عمّ تتحدّث؟
- مَنْ خرج الآن من هذا الباب؟

أدركت الفتاة من وراء سؤاله أنّه لم يكن يريد معرفة الشّخص الّذي خرج بقدر ما كان يريد إثبات إدانتها بالخيانة فحسب.. ورغم أنّ سؤاله كان مباشرا وأنّ التّهرّب من الإجابة عنه بدا مستحيلا إلاّ أنّها كانت تأمل دائما جهله بهويّة الشّخص الّذي غادر منذ قليل إذ لو عرفه لما تركه على قيد الحياة.. لم يأخذ منها هذا التّفكير أكثر من ثوان أجابته بعدها بكلّ ثقة:

- وهل من عادتكَ أن تسألني عن هويّة ضيوفي؟ ثمّ من تظنّه يكون؟
- طبعا هو فيليب..

كان جورج يقصد ذلك الشّاب الّذي تقدّم لخطبتها منذ شهرين ورفضته العائلة بدعوى أنّها مخطوبة لجورج والحال أنّ فيليب كان أفضل من جورج بكثير.. لذلك، ولعديد الأسباب الأخرى، كان جورج يكره ذلك الشّاب كثيرا.. كانت آلين قد نسيت أمره، وعندما نطق جورج باسمه تنفّست الصّعداء وقالت لخطيبها والفرحة تأسر قلبها:

- كلاّ يا جورج.. أقسم لكَ بأنّه لم يكن فيليب..

وكان جورج يعرف أنّ آلين لا تُقسِمُ كذبا أبدا، فقال لها في نبرة تنمّ عن شبه اعتذار:

- من كان إذن؟
- بل قُلْ من كانت.. إنّها صديقتي كاترين..
- ولِمَ تغادر البيت من باب المطبخ إن كانت حقّا..

- كنّا جالستين هنا نتحادث، وعندما حان وقت ذهابها خيّرت الخروج من هذا الباب.. قالت لي أنّها ليست غريبة..
- حسنا.. أعدّي لي كوبا من الشّاي..

كانت تلك طريقته في الاعتذار، لكنّه هذه المرّة لم يقتنع تماما بما قالته لم يكن قلبه مطمئنّا، وكان ما يزيد قلقه تهرّبها الدّائم من فكرة إعلان خطبتهما.. كانت تتحجّج له بصغر سنّها وبأنّ العمر ما يزال أمامهما حتّى يُعْلِنا الخطبة ويقرّرا الزّواج، ولكنّ الحقيقة لم تكن كذلك بالنّسبة لآلين، كانت المسكينة مرغمة على مجاراة تفكيره حتّى تفرج، لم تكن تعلم نهاية لتلك المأساة.. لم تكن تحبّه.. أجل.. هي لا تحبّ جورج ولا ترى فيه الفارس الّذي تراه كلّ فتاة في الأحلام.. كان جورج ضخم الجثّة، عريض الكتفين، مفتول العضلات، كان شبيها إلى حدّ بعيد بأبطال القصص الخرافيّة الّتي كانت تسمعها من جدّتها.. كان يرتدي دائما بنطلون جينز وقميصا أسودا أو أخضرا بلون ثياب الجنود.. في عبارة، كانت ترى فيه صورة الوحش المخيف رغم أنّه ابن خالتها!..

ولم يكن مظهره الخارجيّ بالدّافع الأوّل لتحمل له كلّ ذلك الخوف والازدراء فكثيرا ما يكون الخارج قشرة تغطّي كيانا جميلا، لكنّ ما يقبع داخل ذلك الجسم الضّخم ما كان كذلك، بل إنّ كلّ عيوب جورج كانت كامنة في شخصيّته.. كان إنسانا عنيدا وحقودا وظنّانا كبيرا، بل إنّ شكوكه وعدم ثقته بنفسه جعلت منه شخصا معقّدا.. كان دائما سريع الانفعال، كثير الغضب، متهوّرا، لا يحبّ أحدا ويظنّ أنّ كلّ النّاس أيضا يكرهونه.. ولولا حبّه الكبير لآلين لَتَحَوَّلَ إلى كتلة أكبر من العقد يصعب حلّها، لكنّ آلين أدركت نقاط ضعفه وحاولت التّأقلم مع شخصيّته وعرفت كيفيّة التّجاوب معه وأيقنت بأنّه مع كلّ عيوبه طيّب القلب وحنون.. لكن رغم ذلك، لم تخلُ حياتهما من الشّجارات اليوميّة وآخرها ليلة البارحة، حينما أرادت أن تذهب لتبيت في منزل صديقة لها، إلاّ أنّه رفض السّماح لها بذلك بحجّة أنّ صديقتها تعيش مع أخيها، مع أنّ

الرّجل كان متزوّجا وله ابن صغير.. رغم كلّ شيء رفض ذهابها إلى بيت صديقتها وكانت هي بعد كلّ ما تعوّدت من عناده وشكّه وتهوّره مجبرة على الرّضوخ لأوامره درءا للمتاعب..

لم يُعلنا خطبتهما مع أنّ جورج كان خطيبها مذ صارت تدرك ما حولها. مذ كان عمرها ثلاث سنوات، كانت تسمع خالتها أنجيل تقول «آلين لن تكون إلاّ لابني جورج..» وكانت أليس أمّها تجيب أختها أنجيل «وهل سنجد أحسن منه زوجا لابنتنا؟» كانت آنذاك تظنّه مجرّد مزاح وكلام عبث يدور عادة بين أفراد العائلة حينما يكون الأولاد في عهد الطّفولة.. لكن بمرور الأيّام والسّنين، اتّضح للفتاة المسكينة أنّ ما بنته العائلة صار غير قابل للهدم خاصّة وأنّ جورج كان جاهزا على الدّوام لترميم أيّ شرخ يمكن أن تحدثه آلين في صرح علاقتهما، وكانت هي تستغلّ أتفه الأسباب حتّى تحاول إنهاء تلك المأساة لكنّها لم تفلح.. وأحيانا، كانت تجلس إلى نفسها وتظلّ تبكي ما شاء الله أن تفعل حتّى تمسح عن قلبها كلّ ما علق به من آلام.. كان جورج يكبرها بثماني سنوات وعلى ذلك، فإنّها حين ترى غيرته وحسده تظنّه طفلا صغيرا عاجزا عن التّمييز بين الأشياء وعن إدراك عواقب الأمور، لم تكن تظنّه طفلا أي بمعنى البراءة بل كانت تراه إنسانا غير ناضج لا يستطيع الاضطلاع بأيّة مسؤوليّة..

وبقدر ما كانت آلين تشمئزّ من جورج بقدر ما كانت تميل إلى أخته جوزفين الّتي تصغرها بثلاث سنوات، ورغم أنّها لم تتجاوز الثّانية عشر من عمرها إلاّ أنّها كانت فتاة ذكيّة ورفيعة الخلُق.. كانت على علم بأنّ آلين لا تحبّ جورج أو على الأقلّ ترفضِ الزّواج منه بل إنّها كثيرا ما أخذت تواسي آلين حينما تحسّ بقدر الحزن الّذي تعانيه، لكنّها للأسف لم تملك يوما أن تقدّم لها أكثر من المواساة والتّعزية، لم تكن قادرة على فعل شيء يجعل جورج يتراجع عن تفكيره في ابنة خالته، بل إنّها قرّرت أكثر من مرّة أن تحادثه في الموضوع وأن تكشف له

حقيقة الأمر لكنّها –وأمام قسوته وصلابة قلبه- كانت تتراجع في اللّحظة الأخيرة عن قرارها خوفا منه وممّا يمكن أن يفعله بها وبآلين..

* * *

أكمل جورج احتساء كوب الشّاي ثمّ قام وغادر المنزل من باب المطبخ تاركا الفتاة جالسة واضعة رأسها بين كفّيها سارحة بخيالها إلى أبعد مكان عن ذلك البيت وذلك البلد بأسره.. كانت ترسم صورة لحبيب قلبها في مخيّلتها وتبسم له وتراه يردّ لها الابتسامة.. وفجأة سمعت خالتها تناديها فهرعت إليها في خفّة..

- نعم يا خالتي.. هل ناديتني؟
- هل كنتِ في السّطح؟
- كلاّ.. لقد نزلت منذ أكثر من نصف ساعة، وقد نشرتُ الغسيل كما طلبتِ منّي..
- أين كنتِ إذن أيّتها الشّقيّة؟ ناديتكِ طويلا.. أ لم تسمعيني؟
- كنتُ في المطبخ.. مع جورج..
- أ مازلتما متشاجرين؟
- لا أبدا.. إنّما..
- إنّما ماذا؟ أرجوكِ يا ابنتي.. أنا أعرف أنّه غيور وظنّان وسريع الانفعال، لكنّه حقّا طيّب القلب وحنون.. ولا بدّ أنّكِ تدركين ذلك.. لا تغضبي من تصرّفاته الصّبيانيّة.. إنّه يحبّك كثيرا لهذا تجدينه يخاف عليكِ..
- أعرف ذلك.. لكنّني لم أعد أطيق.. أحسّ أنّني أختنق..
- لا بأس يا عزيزتي..

ثمّ طأطأت رأسها وأردفت:

- تلك مشيئة الله.. لم يُرِد أن تكوني لجوزيف..
- عمّ تتحدّثين؟
- ابني جوزيف.. خطفته منّي الانتفاضة الأولى.. منذ ولادتكما قرّرنا أنا وأمّكِ أنّكما ستكونان لبعض وأن لن يفرّق

بينكما إلاّ الموت.. وهذا ما حصل فعلا.. لم تتفارقا طوال ثلاث سنوات حتّى فرّقتكما إرادة الله الّتي لا رادّ لها..

- وهذا ما جعلكما تربطان مصيري بمصير أخيه الأكبر؟ أ ليس هذا ظلما؟ كيف ترسمان لي مستقبلي دون أن تفكّرا بي ولا به؟

- إن كان على جورج فهو يحبّك أكثر من نفسه.. أمّا إن كنتِ أنتِ الّتي تكرهينه..

- أنا لا أكرهه.. لا أكرهه ولكن..

كان من العسير عليها أن تقول أنّها أيضا لا تحبّه.. أنّه ليس الشّخص الّذي تتمنّاه.. لم تقلْ هذا لأنّها كانت تعلم ألاّ جدوى من ذلك.. أنّ خالتها لن تفهم شيئا وأنّها ستعمد إلى إخبار جورج بما دار بينهما من حوار وسيكون اليوم مشؤوما..ولن تستفيد هي في نهاية الأمر إلاّ سُخْطَ جورج وما قد ينجرّ عنه من عواقب لا يُحْمد التّفكير فيها.. فأتمّت كلامها:

- ولكنّني أرفض المبدأ.. أرفض أن تختاروا شريك حياتي مكاني..

- ولو تركنا لكِ حرّيّة الاختيار.. هل كنتِ سترفضين جورج؟

«لم أكنْ لأختاره على كلّ حال..» أسرّتها في نفسها ونطقت عن مضض إقفالا لباب النّقاش «بل كنتُ سأقبله..» ثمّ أتمّت في سرّها «وأسلّم أمري لله..» ..

كانت آلين تسمع دائما عن ابن خالتها هذا الّذي مات في انتفاضة الحجارة، وكانت تندهش عندما ترى ردّة فعل أنجيل حينما يقول لها زوجها داود أنّ ابنهما جوزيف قد مات تحت أنقاض بيتهم الّذي وقع آنذاك وعادوا بعده إلى مصر.. كانت تهيج وتبكي وتنتحب وتلطم خدودها وهي تصرخ «كلاّ.. كلاّ.. لا تقلْ هذا.. لم أر جثّته حينما حملوا الأنقاض وبحثوا تحتها.. » لذلك خيّر الجميع نسيان هذا الموضوع أو تناسيه تفاديا لثورتها.. وحتّى بعد مرور كلّ هذه السّنوات، ما زالت المرأة تجلس أحيانا وتذكره وتذكر بسمته وهيئته، وكثيرا ما تأخذ

ملابسه بين يديها وتدسّها في أنفها كي تشتمّ رائحته فيها والدّموع تتساقط على خدّيها حارّة حرارة حسرتها عليه وأملها في العثور عليه يوما..

وكما كانت أنجيل تحسّ بابنها، كانت آلين تشعر كذلك بوجوده ساكنا في قلبها ولم يغِبْ هذا الأمر عن أمّها الّتي كانت تحفظها عن ظهر قلب، فقد قالت لزوجها ذات مساء وهو جالس يحتسي القهوة مع شيء من الكعك:

- ابنتُك يا إسحاق لا تحبّ جورج..
- وكيف عرفتِ ذلك؟
- إنّها ابنتي، وإن لم تسرّ لي بشيء من هذا القبيل إلاّ أنّني أقرأ بكلّ سهولة في عينيها ما تخطّه على قلبها..
- بعيدا عن كلّ هذه الفلسفة، آلين معها حقّ يا أليس، حتّى الضّرير بإمكانه أن يكتشف قبح ابن أختكِ، وحتّى الغبيّ بإمكانه أن يفهم أنّه شخص غير جدير بحبّ أحد.. إنّها حقيقة واضحة ومن حقّ آلين أن ترفضه إن عنا لها ذلك..
- ترفضه؟ هل جُنِنتَ يا رجل؟
- ولماذا جُنِنت؟ هل ستعيش المسكينة معه تحت سقف واحد وهي لا تطيق الحديث معه بل وحتّى النّظر في وجهه؟
- لكنّ زواجهما أمر تمّ التّخطيط له منذ كانت آلين ابنة ثلاث سنوات..
- كما خطّطتما عند ولادتها لزواجها بجوزيف..
- هو ذا ما أخشاه..
- ماذا تقصدين؟
- جوزيف ما زال ساكنا بقلب ابنتك..
- أنتِ تهذين.. أ يعني هذا أنّها كانت تذكر نفسها حينما كانت تلعب معه وهي لم تتمّ بعد ربيعها الثّالث؟ يا للهراء..
- ليس الأمر هراء.. آلين كُتِبت لجوزيف منذ الأزل.. وإن لم تتزوّجه.. فلن تتزوّج أبدا..
- ومادام قد مات..
- لن تتزوّج جورج ولو قتلناها..

كانت أليس متميّزة في تلك العائلة بفطنتها وسرعة بديهتها وبُعْد نظرها، كانت راجحة العقل وحكيمة حتّى أنّ جلّ أفراد العائلة يستشيرونها دائما فيما يهمّهم وكانت ترشدهم في الغالب للطّريق السّليم. وإلى جانب ذلك، يقول الجميع أنّها تمتلك الحاسّة السّادسة وأنّها كثيرا ما تتوقّع حدوث عدّة أشياء فيصدق حدسها.. ربّما كان ذلك من باب الصّدفة، لكنّ تناسق الأحداث وعلم أليس بدواخل العائلة كانا يسهّلان عليها تلمّس ما سيأتي به المستقبل.. ولعلّ الحدث الّذي وقع منذ اثنتي عشرة سنة كان هو الّذي دعم رأي الجميع في هذه الميزة الّتي اختصّت بها أليس دون غيرها، وزادهم ثقة بما تقوله. يومها أدركت المرأة أنّ حربا ما سيشتعل فتيلها وعندما ظهرت بوادر الانتفاضة قالت أليس عن حسن نيّة كلاما ردّده كلّ النّاس وقتها «لن تمرّ هذه الأزمة بسلام..».

رسخت تلك العبارة بأذهان الجميع وكأنّها كانت اختبارا أراد به أفراد العائلة خاصّة أن يتأكّدوا من موهبتها تلك.. ولم تمضِ أيّام حتّى تهدّم البيت وماتت الجدّة وغاب جوزيف عن الأنظار وصدَق ما توقّعته.. وأتت الانتفاضة لتحمل معها البيت الّذي يؤوي الجميع والفتى المحبوب من الكلّ ومستقبل الفتاة الّتي ظلّت روحها متعلّقة بروحه.. عندما حملت العائلة أدباشها وقفلت راجعة إلى مصر، كانت آلين تلتفت يمنة ويسرة وتبحث بعينيها عن جوزيف فلا تجده، يومها قالت أليس لزوجها وهي ترمق نظرات ابنتها وتحرّكاتها:

- أنظر يا إسحاق.. آلين تبحث عن جوزيف..
- طبعا.. أ لم يكن يلعب معها دائما؟
- لا يتعلّق الأمر باللّعب.. إنّه الحبّ..
- إنّها لم تبلغ بعد الثّالثة من العمر..
- اسمع.. أنت لا تفهم معنى أنّ الله يخلق لكلّ إنسان نصفه الثّاني.. جوزيف هو النّصف الثّاني لآلين.. هل فهمت؟
- ومادام هذا النّصف قد اختفى.. كيف ستعيش الفتاة؟ بعين واحدة ورجل واحدة ونصف أنف؟ هاهاها..

- خسارة أنّك لا تفهم ما يدور حولك..
- اتركيني أنعم بغباوتي، هذا أفضل من أن أشقى بفلسفتكِ..

وكان ما توقّعته الأمّ صحيحا، كانت آلين دائمة البحث عن نصفها الثّاني، وعندما تذكُر جورج، كانت ترتسم أمام عينيها كتلة من العيوب لا يمكن لبضع الخصال الّتي يملكها أن تغطّيها..

* * *

دخلت آلين غرفتها وأجهشت بالبكاء.. لم يكن أحد بذلك البيت يستطيع فهمها.. وضعت رأسها على وسادتها وأغرقتها دموعا.. وبينما هي على تلك الحالة، إذ بيَدٍ تربّت على ظهرها وإذ بها أمّها جالسة حذوها على السّرير..

- لن يفهمكِ أحد غيري يا عزيزتي.. من تبحثين عنه غير موجود..
- من تقصدين؟
- أقصد نصفكِ الثّاني الّذي يحمل له قلبكِ كلّ الحبّ.. لم يكُن إلاّ جوزيف ابن خالتك أنجيل الّذي قيل أنّه مات تحت أنقاض بيتنا..
- يا للعجب! أنتِ وخالتي تقولان نفس الكلام..
- صحيح أنّنا اتّفقنا في هذا الأمر لكنّني تشاجرت معها أكثر من مرّة لأنّها لم تفهم بعدُ أنّ جورج ليس كجوزيف وأنّ موت جوزيف منذ أكثر من عشرة أعوام لا يمكن أن يجبرنا على الموافقة على أخيه الأكبر زوجا لكِ خاصّة وأنا أرى عذابكِ هذا..
- لا أستطيع رفض جورج وأنا أدرى النّاس بعناده.. لو لم يحصل عليّ باللّين سيحصل عليّ بالعنف.. أنا خائفة يا أمّاه..
- لا تخافي يا ابنتي.. دعينا نتصرّف بحكمة وتبصّر.. سنترك الأمور تأخذ مجراها الطّبيعي حتّى تأتي الأقدار بالحلّ..

أخذت أليس ابنتها في حضنها لتهدّأ من روعها ثمّ غادرت الغرفة، عندها فتحت البنت أحد أدراج خزانتها وجذبت منه دفترا. كان ذلك الدّفتر يحوي بضع صور كانت قد التُقِطت لها وهي صغيرة مع ابن خالتها جوزيف، نظرت إلى قسمات وجهيهما البريئة ثمّ زفرت وتنهّدت مغمضة عينيها وقالت في نفسها «من كان يدري أنّ الحياة تخبّأ لنا كلّ هذا في طيّاتها يا جوزيف؟»

كانت الفتاة تدرك أنّ كلام أمّها وخالتها عن ارتباط روحها بروح جوزيف ليس إلاّ هذيانا ناتجا عن رغبتهما الملحّة في ربط مصيريْ ابنيهما ببعض لكنّها كانت تحسّ في آن واحد أنّها تحمل بين ضلوعها نصف قلب، وأنّ النّصف الثّاني ضائع منها، ربّما إلى الأبد..

وبينما أخذها التفكير ذاك إلى مدائن قصيّة إذ بطرق عنيف على باب الدّار.. كانت جوزفين أقرب منها لفتحه.. وعندما فُتِح الباب.. شهقت الفتاتان فزعا.. وهرعت آلين إلى ابنة خالتها تساعدها على حمل جورج الّذي كان ممسكا برجله ووجهُهُ ممتقع والعرق يتصبّب من جبينه وهو يقول «اللّعنة.. اللّعنة..».. أجلستاه على أريكة قريبة من الباب.. وما هي إلاّ لحظات حتّى أخذت الدّماء تسيل من رجله.. ركضت جوزفين لتجلب له خرقة ودواء وتنادي أمّها.. وفي الأثناء، جلست آلين بقربه وهي تقول مفزوعة:

- خيرا يا جورج.. ما الّذي أصابك؟

عندها، نسي هو كلّ آلامه وابتسم متغلّبا على عذابه وقال لها:

- هل أنتِ خائفة عليّ يا عزيزتي؟
- وكيف لا أخاف عليكَ؟ أ لستَ ابن خالتي؟
- فقط؟

فأحنت رأسها وأجابت في شبه امتعاض تهيّأ له أنّه الحياء:

- وستصبح خطيبي..

وهزّت هذه العبارة عروش قلبه ونسي حالته واستوى واقفا وهو يصيح «قوليها ثانية..» ولم يكد يتمّ ما قاله حتّى عاوده الألم في رجله فتهالك على الأريكة يئنّ ويتلوّى.. ففزعت آلين وهمّت بالنّهوض لاستعجال جوزفين لكنّه أمسكها من ذراعها وقال لها وعيناه تائهتان وكأنّه يحادث طيفا..

- أمكثي بجانبي يا آلين.. لا تبتعدي عنّي أرجوكِ.. أنا لا أملك غيركِ.. أ تعرفين لماذا؟ لأنّك الوحيدة الّتي تفهمني وتقدّر مشاعري وأنتِ الوحيدة الّتي تحبّني على وجه هذه البسيطة.. أ ليس كذلك؟

ثمّ سكت هنيهة يستردّ أنفاسه المهدورة وينتظر جوابها فيما كانت هي تفكّر في ما ستردّ به عليه.. هل تستغلّ هذه الفرصة لتعترف له باستحالة قبولها لفكرة خطبتهما؟ أم تنتظر الوقت الأنسب وتختار مجاملته ولو بكذبة صغيرة؟ عندها تخوّف هو من صمتها وبدأ الشّكّ يداخله من جديد:

- لِمَ تصمتين؟
- ليس الآن وقت الحديث يا جورج.. جرحكَ ينزف..
- قلبي هو الّذي بات ينزف يا آلين..

ثمّ صمت قليلا وأردف بعدها:

- لِمَ تتهرّبين من الإجابة؟
- أنا لا أتهرّب.. أعدكَ أنّنا سنتحدّث في هذا الأمر بعد أن نوقفَ هذا النّزيف.. يعزّ عليّ أن أتركَكَ هكذا.. أنا خائفة عليكَ يا جورج..

طمأنته العبارة فركن إلى الهدوء حتّى عالجته أمّه وضمّدت كلومه، وبعدها، أمرها بالانصراف حتّى يحادث آلين على انفراد، وعندها، أخذت دقّات قلب الفتاة تتزايد، كانت دائما تتحاشى مواجهته الّتي كانت تنتهي في الغالب إمّا بالشّجار أو برضوخها.. ومع أنّها كانت تتوسّم فيه الحنان وطيبة القلب إلاّ أنّها كانت تخشى عناده وتهوّره وسرعة غضبه، إذ يمكنه أحيانا أن ينقلب من إنسان وديع، رقيق إلى وحش شرس، عنيف في أقلّ من لحظات، ولم تكن الوداعة ولا

الشّراسة تطبّعا منه بل كانتا معا في طبعه، أي أنّه كان مزيجا غريبا من اللّين والعنف والخير والشّرّ والطّيبة والقسوة، يمكن أن تطيّب كلمة خاطره ويمكن أن توقِدَ غيرها نار الحقد في قلبه، لذلك كانت آلين تهابه وتفضّل عدم التّعامل معه..

يومها، خرجت أنجيل من الغرفة منفّذة ما طلبه منها ابنها.. عندها تمتمت آلين في ضيق خفيّ:

- خيرا يا جورج..

- كلّ الخير يا آلين.. طلبتِ منذ قليل تأجيل الحديث.. آمل ألاّ تكوني قد ألغيته..

- عمّ تتحدّث؟

- عن السّؤال الّذي طرحته عليكِ وتهرّبت من الإجابة عنه..

- أتهرّب؟ ولِمَ أتهرّب؟ مازالت الأيّام أمامنا.. سأجيب عن كلّ الأسئلة الّتي تطرحها وسيجيبكَ الزّمان عن تلك الّتي لم تطرحها..

- معكِ حقّ.. لكنّني أريد الآن وفورا إجابة واضحة وصريحة.. أنا لا أخفي عنكِ أنّي بدأت أرتاب في صدق مشاعركِ نحوي..

- مشاعري؟ اسمع يا جورج.. أنت تكبرني بثماني سنوات لذلك فأنت تستطيع تحديد أحاسيسك أمّا أنا فصغر سنّي يحول دوني ودون ذلك..

- ماذا تقصدين؟

- أنا لا أقصد طبعا أنّي أكرهك.. انزع هذه الفكرة من دماغكَ.. أنا لا يمكن أن أكرهك.. قد نشأنا وتربّينا معا، وأنت ابن خالتي أنجيل الّتي أحبّها أكثر من نفسي، صحيح أنّني أشعر بنوع من الميْلِ إليك لكنّني لا أستطيع تحديد نوع هذا الميل.. إن كان حبّا أم سواه.. هل فهمتني؟ أنا أطلب منك فقط أن تمنحني مهلة حتّى أتأكّد من صدق مشاعري نحوك.. هل أنت موافق؟

- آلين.. أنتِ أكثر العارفين بالحبّ الّذي أكنّه لكِ في قلبي.. وأنتِ أكثر العارفين أيضا بطيبتي، لكنْ.. ما يجب أن تعيه حقيقة هو أنّني طيّب ولست ساذجا.. وإن اكتشفت يوما ما أنّكِ تخدعينني لن تلومي إلاّ نفسكِ..

اقشعرّ بدن الفتاة، إذ كانت تعرف أنّ جورج مجنون وأنّه لن يتوانى عن فِعْلِ أيّ شيء في سبيل الحصول على ما يريد.. ثمّ استعادت هدوءها ورباطة جأشها وأرادت أن تنفض عن الجوّ بعض ما علق به من توتّر فقالت مغيّرة مجرى الحديث وباحثة في آن واحد عن يقين لبعض الشّكوك الّتي راودتها بعد أن دخل جورج البيت يومها في تلك الحالة:

- لكنّني غاضبة منكَ..
- لماذا؟
- لأنّك شغلتني بهذا الموضوع عن المسألة الّتي كنتُ أودّ معرفتها..
- وما هي هذه المسألة؟
- ما الّذي جرى اليوم؟

ارتبكَ جورج وأحسّ في سؤالها اتّهاما مباشرا له..

- لم أفهم سؤالكِ..
- هل ترى أنّك تأبى أن تقرّبني من مشاغلك؟ لا تعاتبني إذن بعدها لو قلتُ أنّني لا أعتبرك إلاّ ابن..
- حسنا.. حسنا.. لا تكملي.. سأخبرك بكلّ شيء..
- وبالتّفصيل؟
- وبالتّفصيل..

أخذ القارورة وسكب قليلا من الماء في الكوب، رشف منه قليلا ثمّ قال في تردّد: «بعد أن غادرتُ المنزل اليوم.. بعد أن تحادثنا معا عن.. عن قدوم صديقتكِ كاترين.. المهمّ.. عندما غادرتُ المنزل قصدتُ بيت أحد أصدقائي ليسلّمني الرّشاش الّذي وعدني به البارحة وخرجتُ أحارب.. أحارب الأعداء الّذين يريدون إخراجنا من ديارنا بانتفاضاتهم وثوراتهم.. وللأسف لحق بي أحدهم.. رمى في وجهي التّراب وأسقطني

آخران أرضا وغُرِس في رجلي خنجر حادّ ثمّ أخذوا منّي رشّاشي الّذي أفلتَ من يدي.. أردتُ اللّحاق بهم لأمزّق أجسادهم فلم أجد أحدا منهم.. اختفوا عن الأنظار.. هل ترينَ لماذا أتهرّب من الإجابة عن سؤالك؟ أطفال أكبرهم لم يبلغ بعدُ الخامسة عشر يفعلون بي ما فعلوا؟ ينتصرون عليّ؟ الغريب أنّني مندهش من صلابة هؤلاء القوم ورباطة جأشهم.. لا أخفي عنكِ.. لم أعرف إلى الآن من أين يأتون بكلّ ذلك الصّبر وكلّ تلك القوّة..»

بعد أن أتمّ كلامه وجد آلين ممتقعة الوجه، تكاد العبرات تفرّ من عينيها فقال لها قلقا:

- ما بكِ يا آلين؟

- خسارة يا جورج.. هل أردتَ أن تقتل أطفالا أبرياء؟ أن تمزّق أجسادهم؟ أ لا تملك قلبا؟

- أ لم تريْ ما فعلوه بي؟ كادوا يقتلونني..

- وإن يكنْ.. إنّهم بذلك يرون أنّهم يدافعون عن بلدهم..

- ماذا؟ بلدهم؟ إنّها بلدنا نحن وهم –المتطفّلون- عليهم الخروج منه إن عاجلا أو آجلا.. إن باللّين أو بالقوّة..

- وما لنا نحن وكلّ هذا؟ أ لم نكن نعيش في مصر معزّزين مكرّمين؟ كيف غُرِسَ في قلبنا حبّ الأرض فجأة؟

- قلتُ لكِ أنّ الأرضَ أرضنا ونحن أحقّ بها من هؤلاء..

- ومنذ متى وأنت مهتمّ بالسّياسة وبالحرب؟ عهدتكَ فتى هادئ البال، شاغر الوقت لا تشغله إلاّ بسماع الموسيقى الصّاخبة والجلوس مع الأتراب في المقهى..

- وحتّام سأظلّ على هذا الحال؟ قد حان الوقت لتستردّ بلدنا مجدها الضّائع..

- وأنت هو من سيعيد هذا المجد؟

- أنا وغيري..

- بالقتل وسفك الدّماء؟

- أصمتي لا تتحدّثي في مواضيع لا تفهمين منها شيئا.. هيّا اذهبي إلى المطبخ وساعدي أمّي وخالتي في إعداد طعام العشاء.. تحرّكي..

وتحرّكت آلين لكنّها لم تذهب إلى المطبخ كما أمرها.. بل سارعت إلى غرفتها، جلست على مكتبها وجذبت دفتر مذكّراتها.. قلبت صفحة بيضاء ودوّنت..

«قبل ساعات فقط، كنتُ متردّدة في تحديد مشاعري نحوه.. لا أنكر أنّي أحسست للحظات اليوم أنّني قريبة منه.. عندما رأيته في تلك الحالة.. عندما خفتُ عليهِ وركضت لأسنده.. ربّما كان ذلك إحساسا نابعا من شعوري بضعفه أو بأنّي على الأقلّ في موضع أقوى من موضعه.. ربّما كان ذلك إحساسا بالشّفقة.. ربّما كان إحساسا بوازع القرابة الّتي تربطنا ببعض.. وربّما كان إحساسا بواجب إنسانيّ.. المهمّ أنّني في تلك اللّحظة اندفعتُ بكلّ جوارحي لأنجده.. اضطربت بعدها مشاعري وخمّنت لوهلة أنّ ذلك الجسد الضّخم يمكن أن يخفي بين ضلوعه قلبا محبّا وحنونا أثّرت فيه حوادث الزّمن وكسته ثوبا من القسوة والعنف لم يقدر مع ذلك على ستر مزايا هذا الإنسان.. وقُلتُ أنّ جورج يمكن أن يسعدني حتّى وإن لم أحبّه كما أحبّني.. لكنْ.. كلّ ما فكّرت فيه كان وهما.. تهدّم صرح الأمل قبل أن أضع فيه حجر الأساس.. صفاء الرّوح.. تأكّدت منذ قليل فقط أنّ أملي فيه قد خاب.. أنّ روحه مظلِمة وقلبه أسود.. أنّه بدأ يوزّع النّقمة الّتي يحملها في صدره على أناس أبرياء.. يقتل النّاس بدعوى أنّه يريد المحاربة في سبيل البلد.. ومنذ متى كان البلد يهمّه؟ ليست هذه إلاّ وسيلة يستعملها للانتقام من نفسه.. ومن أمّه.. ومن عائلته.. ومن المجتمع بأسره.. صار يُفْرِغ شحنة غضبه في أجساد الضّعفاء.. لم أكن أعرف أنّه وحش.. أمّا الآن فلن أقبل العيش معه ولو على جثّتي..»

وضعت القلم وأغلقت الدّفتر وكأنّها تطوي بذلك آخر صفحة لها مع جورج..

* * *

IV

مرّت السّنوات ولم يُعْلِم أحمد أمّه بما جرى له يومها، بالمأزق الّذي وقع فيه، وبالفتاة الّتي أنقذته، آثر الصّمت على أن يُحْرَم من رؤية أترابه إذ كان يعلم أنّ خوف أمّه سيشتدّ أكثر وأنّها يمكن أن تجبره على المكوث بالبيت طوال حياته.. كان عندما يذكر الحادثة يبتسم قليلا ثمّ يقول في نفسه «لو أعلمتها اليوم وحتّى بعد مرور أربع سنوات تقريبا على ما جرى لسلّطت عليّ العقاب وكأنّ الأمر حدث البارحة..»

استيقظ باكرا ككلّ يوم، وقف أمام المرآة يحلق لحيته ثمّ توضّأ وأدّى فريضة الصّبح، غيّر بعدها ملابسه وتهيّأ للمغادرة، فوقفت زينب بجانب باب المطبخ وقالت له:

- نسيتُ أن أسألك يا ولدي.. هل تناولت كوب الحليب الّذي تركته البارحة على المكتب عند السّحور؟

- أجل يا أمّي.. شكرا لكِ..

- وإلى أين أنت ذاهب؟

- سأقصد المعهد.. لكنّني لن أعود إلاّ قبل الإفطار بدقائق..

- ولِمَ لا تأتي عند العصر لأخذ قسط من الرّاحة يا ابني؟.. إنّك تجهد نفسكَ كثيرا..

- لا بأس يا أمّي.. يجب أن أدرس حتّى أنجح هذه السّنة..

- وفّقكَ الله يا أحمد..

وعندما غادر الشّابّ البيت حمدت زينب القدير في سرّها أن أبعد ابنها عن السّياسة وتهوّر الشّباب وهداه إلى طريق العِلْم والدّراسة وأبعد عن قلبها الخوف المتواصل عليه.. لكنّ الحقَيقة الّتي لم تكنْ الأمّ المسكينة تعرفها هي أنّ ابنها لم يبتعد تماما عن هوايته المفضّلة، صحيح أنّه اهتمّ أكثر بدراسته ومستقبله لكنّه لم ينفكّ يوما يفكّر في قضيّة بلده.. لم ينفكّ يوما يبثّ الرّعب في قلوب الأعداء ولم ينفكّ يوما يبدّد شملهم..

عندما غادر أحمد المعهد متّجها إلى المكان المعتاد الّذي يلتقي فيه عادة بأصحابه، وقبل أن يصل إلى هناك، شاهد من بعيد جماعة من النّاس واقفين ثمّ أخذت الحجارة تتطاير في الجوّ وأخذ البعض يبتعدون فرارا من أن يصيبهم مكروه.. اقترب أكثر فرأى مجموعة من الصّبية يُلقون الحصى على فتاة كانت تحاول النّهوض من الأرض ولكنّها لا تستطيع فهرول نحوهم:

- ماذا تفعلون أيّها العفاريت؟
- نرجم تلك الكافرة..
- ماذا تقولون؟ ومن قال لكم أنّها كذلك؟
- إنّها من الأعداء..
- وإن يكن.. لا يجب أن نعامل النّساء والأطفال هكذا حتّى وإن كانوا من الأعداء.. هل فهمتم؟

عندها طأطأ الأطفال رؤوسهم وقالوا «آسفون..»، فأجابهم بحزم:

- هيّا اعتذروا لها..

فردّ أحدهم بكلّ ثقة:

- سنتركها وشأنها لكنّنا لن نعتذر لها..

قال هذه العبارة في تحدّ واضح وانصرف مع أصحابه دون أن ينتظر ردّة فعل أحمد، فابتسم الشّابّ وقد غمره إحساس بالفخر نحو هؤلاء الصّبية الّذين ذكّروه بأيّام طفولته، ثمّ انحنى ليساعد الفتاة على النّهوض.. وما إن استوت واقفة وأخذت تنفض ثيابها وتشكره حتّى أخذ يتفرّس في وجهها.. نفس الوجه الدّائري.. نفس الأنف الدّقيق.. نفس العينين العسليّتين.. نفس الشّعر الأسود الحريريّ.. نفس الصّوت الحنون الّذي همس في أذنه منذ ما يناهز عن الأربع سنوات بالنّجدة.. إنّها هي!

وقف ينظر إليها ولا يدري كيف يذكّرها بنفسه فقطّبت هي حاجبيها وتساءلت مشيرة نحوه ببنانها:

- أ لست أنتَ..؟

فسارع هو يجيب:
- بلى.. أنا أحمد.. أنا هو الشّابّ الّذي يدين لك بحياته..
- غير معقول.. لم تتغيّر ملامحكَ كثيرا..
- ولا ملامحكِ..
فتورّدت وجنتاها وأطرقت برأسها خجلا فتدارك هو الموقف بقوله:
- إنّما.. ما الّذي أوقع بكِ في شبّاك هؤلاء الأشقياء؟
- لا أدري.. كنتُ ذاهبة إلى الصّيدليّة لاقتناء بعض الأدوية لوالدي.. وبينما كنتُ أعبر الشّارع فوجئت بدرّاجة تعترض طريقي وتسقطني أرضا.. ثمّ تهاطل الأطفال من كلّ حدب وصوب وأخذوا يُلقون عليّ الحصى وسمعت أحدهم يقول «إنّها خطيبته.. خطيبة ذلك الوحش الّذي حاول البارحة قتل أخي أيمن..» أظنّ أنّي كنتُ سأموت لو لم تأتِ أنت وتنقذني من براثنهم..
- من براثنهم؟ إنّهم أطفال وهم يجدون أحيانا فيما قاموا به معكِ اليوم تسلية لهم وإثباتا لوجودهم في آن واحد..
- إثبات لوجودهم؟
- أجل.. نحن هنا نثبتُ وجودنا بالدّفاع عن وطننا..
- أمركَ غريب.. كيف أنقذتني إذن ما دمتُ عدوّة لكم؟
- ليس الأمر غريبا.. لا تنسيْ أنّكِ أنقذتني منذ سنوات من الموت مع أنّكِ كنتِ تعلمين يومها أنّني من أعدائك..
- لكنّك لم تعرف هويّتي إلاّ الآن.. أي بعد أن أقدمت على إنقاذي..
- المسألة هي كما قُلتُ للفتى منذ قليل فنحن لا نريد استعمال القوّة والعنف مع النّساء والأطفال.. نحن لا نحارب إلاّ الرّجال أمثالنا.. لكنّ الغريب حقّا هو أمركِ أنتِ.. كيف غامرت يومها رغم أنّكِ لم تكوني مجبرة على نجدتي؟
- إنّه الواجب الإنسانيّ..
- كان جميلا لم أنسه طوال عمري..
- وها أنتَ ذا تردّه اليوم..

* * *

وصلت آلين إلى بيتها، شكرت أحمد وأدارت المفتاح في قفل الباب، وضعت رجلها في البيت والتفتت للفتى تودّعه بعينيها فرفع هو يده حتّى صارت بمستوى كتفه وألقى التّحيّة من بعيد مؤذنا بنهاية ذلك اللّقاء، وبقي بعدها واقفا حتّى توارت هي عن أنظاره واختفت داخل المنزل مقفلة الباب وراءها فقفل هو عائدا إلى بيته بعد أن شارفت شمس ذلك النّهار على المغيب..

أمّا آلين فركضت مسرعة إلى غرفتها وأغلقت الباب ووقفت متّكئة عليه وعيناها مغمضتان، وعلى فمها ابتسامة ظفر.. لم تكن تدري معنى لتلك الفرحة الّتي انتابتها وقتها.. تمدّدت على فراشها وأخذت تفكّر وتفكّر في ذلك الإحساس العارم الّذي يجتاحها ولم تعرف له تفسيرا واضحا.. ذلك الإحساس الغريب الجميل في آن واحد.. ذلك الإحساس الّذي لم ينتبها من قبلُ أبدا.. أخذت تذكر ملامح أحمد.. شعره الأسود.. عيناه العسليّتان.. قامته المتوسّطة المائلة إلى الطّول.. بسمته المشرقة.. كلامه الجميل.. نظرته المبهرة.. أخذت تتذكّر كلّ التّفاصيل.. كلّ عبارة قالها.. كلّ إشارة أتاها.. كلّ نظرة.. وكان كلّ ما أسرَها فيه عدم مجاوزته في حديثه معها لحدود اللّباقة واللّياقة وعدم تعدّيه على الأصول ولو بالتّلميح والتزامه باللّطف ورفعة الأخلاق.. ثمّ رفعت رأسها وقطّبت حاجبيها وتساءلت في نفسها «هل من المعقول أن أكون قد استنتجت كلّ هذا من مجرّد لقاء لم يدم أكثر من سويعة؟ أم هو قلبي الّذي يشيد لي قصورا وهميّة؟ وكيف لم أَنْسَ ملامحه رغم مرور سنوات على تلك الحادثة الّتي جمعتني به بضع دقائق؟»

وكانت نفس تلك الأسئلة تجول بخاطر أحمد في تلك الآونة وهو في طريقه إلى البيت، حتّى أنّه نسي الوقت، وما إن وطأت قدمه عتبة الدّار حتّى فاجأه صوت المؤذّن يُعلِن حلول صلاة المغرب والإذن لكلّ الصّائمين بالإفطار، عندها تعجّل الدّخول إلى البيت، وضع قطعة تمر في فمه وشرب كوبا من

الماء وانصرف بسرعة إلى المسجد ليلحق الصّلاة جماعة.. وعندما عاد وأتمّ تناول الإفطار أغلق باب غرفته وجلس على مكتبه لمراجعة بعض الدّروس لكنّه في الحقيقة كان يراجع ما حدث له يومها، متيقّنا أنّ امتحان القلب هو أصعب من الامتحان الّذي ينتظره في آخر السّنة..

جذب دفترا كان يدوّن فيه أبرز حوادث حياته ومن بينها تلك الحادثة الّتي مرّت عليها أعوام وعادت اليوم لتحمل له أجمل الحكايا، وأخذ قلمه وبدأ يدوّن:

«الحقيقة أنّني لقيتُ اليوم الفتاة الّتي أنقذت حياتي عندما كنتُ في الخامسة عشر من عمري، ومن غرائب الصّدف أنّني اليوم رددتُ لها الجميل بأن أنقذتها على حدّ تعبيرها من «براثن» الأطفال.. لم يسحرني فيها جمالها بقدر ما أحسستُ في شخصيّتها نوعا من البراءة القويّة والصّدق الشّديد وحبّ الخير والرّأفة وطيبة القلب.. والغريب في الأمر أنّها تنتمي إلى قبيلة هؤلاء الّذين يقتلون كلّ يوم إخواننا وينهشون لحومنا ويهتكون حرماتنا باسم الدّفاع عن الأرض الّتي لم تكن يوما ملكهم.. أحسستُ من نظراتها أنّها خجلة من انتمائها لهم وأنّها تودّ لو تعتذر عن كلّ ما سبّبوه لنا من آلام وأحزان.. أحسستُ أنّها تكنّ لهم نوعا من الكره وفي المقابل ترأف لحالنا.. ولعلّ أبرز دليل على براءتها وطيبة قلبها، وقوعها اليوم بين أيدي هؤلاء الأطفال دون أن تحاول الدّفاع عن نفسها أو الثّأر لكرامتها ودون أن تمسّهم بسوء رغم كلّ ما فعلوه بها.. ربّما كانت تقدّر طفولتهم وتقدّر أكثر إحساسهم العميق بالكره لكلّ من ينتمي لصنف الأعداء برجالهم ونسائهم.. حتّى ملامح وجهها توحي بألم خفيّ ومعاناة لا حدّ لهما.. ومهما حاولت إخفاءهما فقد فضحهما صوتها أكثر من مرّة.. أردْتُ أن أسألها عن سببهما لكنّني خيّرتُ إرجاء ذلك، علّني ألقاها مرّة ثانية.. أقصد ثالثة..»

كان بودّه لو كتب أكثر، لو عبّر أكثر عن مشاعره تجاهها.. لكنّه لم يكن متأكّدا من تلك المشاعر الّتي يحسّ أنّها تشدّه إليها بخيط رفيع ومتين، لم يعرف ماهيتهُ..

* * *

وبينما كانت آلين تسبح في خيالاتها تلك.. إذ بصوت باب الدّار يُغْلَق.. وصوت حذاء يقترب من باب غرفتها.. أحسّت المسكينة آنذاك أنّ ذهنها الّذي كان يطير بأحلامه في الجوّ ارتطم بسقف الحقيقة والواقع.. سقف اسمه جورج.. انتبهت إلى نفسها.. فتحت درج الطّاولة بحركة سريعة.. جذبت صندوقا صغيرا أحمر اللّون.. أخذت منه الخاتم ووضعته في إصبعها بلا مبالاة وكأنّها ترتدي أرخص أنواع حليّها ثمّ استعدّت لاستقبال طرقه المعتاد على باب غرفتها..

وتمّ ما توقّعته.. لم تمرّ لحظة حتّى طرق الباب وهو يقول في اغتباط واضح:

- هل أدخل؟

فأجابته في امتعاض شديد:

- تفضّل..

دخل وأغلق الباب وراءه وتقدّم منها واضعا يديه وراءه وكأنّه يخفي شيئا خلف ظهره..

- احزري ماذا جلبتُ لكِ..
- علبة شكلاطة؟
- أغلى..
- كتاب؟
- أغلى.. أغلى..
- لا أعرف..

عندها لم يصبر جورج ولم يترك لها مجالا لتقبّل المفاجأة.. وكالأبله، أخرج الصّندوق من وراء ظهره وفتحه أمامها قائلا بسرور:

- الجواهر الّتي ستلبسينها في حفل الزّفاف.. مهركِ يا عزيزتي..

لم تكن آلين تتوقّع أبدا تلك المفاجأة أو قُلْ تلك الصّدمة.. غير معقول.. يجلب لها هو الجواهر في الوقت الّذي تفكّر هي في غيره.. ما هذه اللّعبة الجديدة الّتي يريد القدر هذه المرّة أن يخرز خيوطها؟ نظرت آلين إلى جورج وابتسمت ابتسامة نمّت عن شعور بالمرارة وتماسكت ما استطاعت وتحاملت على نفسها لتقول له في اقتضاب:

- شكرا لكَ.. أرجوك.. اتركني لوحدي حتّى أجرّبها..
- ولِمَ لا تجرّبينها أمامي؟
- أرجوك يا جورج..
- حسنا.. حسنا..

وانصرف من فوره.. من فرط فرحته لم يكن ليتوانى عن تلبية أيّة رغبة من رغباتها في تلك اللّحظة دون تفكير أو نقاش أو ذرّة شكّ في تصرّفاتها.. بل كان يتودّد كطفل صغير يبحث بكلّ الطّرق عن رضا أحبّ النّاس إلى قلبه.. وقدّرت آلين تلك الغبطة ولم تُرِد تنغيصها عليه.. بل إنّ غبطته تلك هي الّتي بعثت في نفسها عذاب الضّمير.. أغلقت صندوق الجواهر ووضعته في أحد أدراج مكتبها.. ثمّ وضعت رأسها على ذراعيها وانفجرت ببكاء حادّ تقطعه أحيانا شهقة أو زفرة.. لم تكن في الحقيقة تعرف سبب بكائها، أخذت تفكّر في تلك السّنوات الّتي مرّت من حياتها دون أن تتّخذ فيها حلاّ حاسما للأزمة، أزمتها مع جورج، بعد مرور سنة واحدة على لقائها الأوّل بأحمد ازداد إصرار ابن خالتها أكثر من قبل على التّعجيل بإعلان الخطبة، آنذاك وافقت عن مضض وهي لم تتجاوز السّادسة عشر من عمرها، وافقت على أمل أن تأتي لها الأقدار بِغَدٍ أحسن من يومها، بنصفها الثّاني الّذي لم تجد له أثرا طوال مدّة خطبتها تلك، وطال الزّمن ومرّت ثلاث سنوات تقريبا على الخطبة، واليوم، عندما التقت أحمد للمرّة الثّانية، أتى جورج مرّة أخرى ليذكّرها بقرب حلول الأجل، قُربِ زواجها به، لم يكن شيء أبغض عليها في الدّنيا من فكرة ارتباطها بابن خالتها ذاك، لم تحبّه يوما ورغم ذلك فهي مجبرة

على القيام بما تأباه، وفي الوقت الّذي تراءى لها خيال أحمد وطيفه الأخّاذ انتشلها صندوق الجواهر من حلمها البديع ليعيدها إلى الحقيقة المرّة..

وفي لحظة جنونيّة.. توقّفت آلين عن البكاء.. اسودّت الدّنيا في وجهها.. امتلأ صدرها حقدا وكرهت اليوم الّذي ربطت فيه الأسرة مصيرها بمصير جورج الّذي رفضه قلبها ونبذه عقلها.. وقرّرت أن تنهي بكلمة واحدة المأساة الّتي بُنِيت على حساب سعادتها الحقيقيّة مع من تحبّ.. قرّرت أن ترمي بالقنبلة في وجه ابن خالتها مستعدّة لتحمّل كلّ الخسائر الّتي يمكن أن تفضي إليها.. قامت من مجلسها واتّجهت إلى باب الغرفة وفتحته فرأت أمامها جوزفين واقفة ترنو لها بنظرة المتعجّبة عندها خمدت نار آلين دفعة واحدة.. أمالت جوزفين رأسها قائلة:

- إلى أين أنت ذاهبة؟ ظننتك ستلبسين الجواهر و..

ثمّ تفحّصت وجه آلين مليّا ثمّ وضعت يدها على فمها وقالت في لهفة:

- ما بكِ يا آلين؟ هل كنتِ تبكين؟

وعندها ارتمت الفتاة على السّرير وأخذت تنتحب.. أخذ كلّ ما حصرته في فؤادها يتسرّب في شكل دموع حارّة.. قطّبت جوزفين جبينها وأغلقت باب الغرفة وجلست قُرب ابنة خالتها وهي تقول:

- أنا أعرف سبب بكائكِ يا عزيزتي.. إنّني أفهم كلّ ما يدور بخلدكِ مذ كنتُ ابنة اثني عشرة عاما.. أعرف أنّك لم تحبّي يوما شقيقي وأنّك كنتِ تأملين أن تنتهي حكاية الارتباط الّتي وضعتها خالتي وأمّي بينكما بكلّ بساطة بمجرّد أن ترفضا أنتما المعنيّان بالأمر ذلك.. لكنّ ما لم يخطر ببالكِ يومها أن يتشبّث بكِ جورج إلى هذا الحدّ الّذي انقلب بالنّسبة إليه حبّ امتلاك ليس إلاّ، خاصّة بعد أن تبيّن له بشكل واضح تهرّبك من مجرّد التّفكير في الزّواج به.. ووقعت أنت ضحيّة كلّ هذه التّفاهات والمشاعر المتشابكة.. جورج لا يمكن أن نحدّد

إحساسه تجاهكِ، إن كان حبّا حقّا أم هو فقط عقدة الرّغبة في الامتلاك الّتي يمكن أن يضيفها إلى أكداس العُقَدِ الّتي تعجّ بها نفسه.. وأمّي وخالتي لم نفهم بعد هدفهما من وراء هذا الرّباط الّذي لم يجرّ إلاّ المتاعب.. كلّ هذه الألغاز لن تحلّها إلاّ إجابة منكِ بالنّفي أو الإثبات عن سؤال بسيط..

وعندها رفعت آلين رأسها وتوقّفت عن البكاء وكأنّها متشوّقة لمعرفة هذا السّؤال.. عندها نطقت جوزفين «هل تحبّين أحدا غير جورج؟» صمتت آلين برهة وجالت ببصرها في الغرفة وكأنّها تبحث عن ملاذ لها من ذلك العالم الّذي تاهت فيه معالم الاستقرار والصّدق والشّفافيّة، ثمّ استقرّت بنظرها على جوزفين وقالت لها في تردّد:

- لا أعرف.. أجل.. لا.. لا أعرف.. كلّ ما أعرفه هو أنّني لا أحبّ جورج.. وأعتقد أنّه سبب كاف لأرفضه زوجا لي..

- هذا يكفي لترفضيه في سرّك لكنّه لا يكفي لتفلتي من الزّواج به..

- ماذا تقصدين؟

- لو أحببتِ غيره يمكنكما أن تتزوّجا وتفلتي بالتّالي من قبضته..

- ربّما كان ما تقولينه صحيحا لكنّه غير عمليّ.. أخوكِ وحش لا يمكن أن أفلت منه حتّى وإن تبخّرت في الجوّ..

* * *

ورغم عدم اقتناعها للوهلة الأولى بكلام جوزفين إلاّ أنّها حينما فكّرت فيه قليلا قبل أن تنام وجدت أنّه ربّما حلّ لا يستهان به بل قد يكون الحلّ الوحيد لتنجو بجلدها من مغبّة العيش مع إنسان لا تحبّه تحت سقف بيت واحد..

وفي صبيحة الغد، وبعد أن تناول الجميع إفطارهم وانصرف كلّ إلى شؤونه، شعُرت آلين بوحدة فضيعة لم تحسّ بها من قبل.. في الحقيقة لم يكن شعورا بالوحدة بقدر ما كان شعورا بنوع من الشّوق والحنين.. رجعت بشريط ذكرياتها إلى

يوم أمس فتذكّرت الموقع الّذي قابلت فيه أحمد والصّدفة الّتي جمعتها به قائلة في نفسها:

«ولِمَ لا أحاول خلق الصّدفة من جديد؟»

كان ذات الإحساس ينتاب أحمد في ذلك الوقت.. لكنّ أحمد لم يكن من جهته يفكّر في أن يصنع الصّدفة كما فكّرت آلين بل اكتفى عند عودته من المعهد بالنّظر إلى المكان الّذي التقى فيه الفتاة أمسا، بحسرة متمنيّا أن يجمعه القدر بها مرّة أخرى ومقتنعا في الآن ذاته بأن ليس كلّ ما يتمنّاه المرء يدركه، لم يجُل بخلده البتّة أنّ ما تمنّاه يمكن أن يتحقّق رغم إيمانه بأنّ الله على كلّ شيء قدير، تقدّم خطوات ولم يصدّق عينيه حينما وجد آلين واقفة بجانب بائع الخضر، ودون أن يشعر، ركض إليها، وقبل أن يصل إلى موقفها تباطأ في مشيته ووقف حذوها مصطنعا عدم رؤيتها وقال للبائع:

- أعطني كيلو غراما من الطّماطم من فضلكِ..

وعندها التفتت آلين مندهشة وقالت:

- أحمد..

فردّ هو بلهجة ساخرة:

- آلين! يا لغرائب الصّدف!

فقطّبت هي حاجبيها مستنكرة طريقته في الرّد فتدارك الموقف وأخذ كيس الطّماطم من يد البائع وقال لها:

- هل أتممت قضاء حاجياتك؟

- أجل.. أنا في الحقيقة.. كنتُ عائدة إلى المنزل..

فألقى هو نظرة خاطفة على السّلّة الّتي كانت تحملها ثمّ نظر إليها مبتسما ابتسامة من تفطّن إلى أمرها وأردف بكلّ ثقة:

- هل سترفضين لو طلبتُ منكِ أن أوصلكِ إلى البيت؟ حتّى لا يقع لكِ ما وقع بالأمس..

- بكلّ سرور..

أخذا في البداية يسيران في صمت حتّى قال أحمد:

- لا بدّ أنّك خرجت اليوم لقضاء حاجيات البيت عوضا عن والدكِ.. بالمناسبة.. كيف حال صحّته اليوم؟
- تحسّن كثيرا..
- الحمد لله.. ومن غرائب الصّدف أن نلتقي اليوم أيضا في نفس المكان الّذي التقينا فيه بالأمس..
- أ ليست صدفة سعيدة؟
- أ مازلتِ مصرّة على جعلها صدفة؟
- ماذا تقصد؟
- ماذا كنتِ تفعلين عند بائع الخضر؟
- أقتني الخضر لطهو عشاء اللّيلة..
- بدليل سلّتك الفارغة؟
- ...
- كما أنّني لا أخفي عنكِ أنّني رأيتكِ من بعيد تنظرين إلى ساعتكِ وكأنّك تنتظرين أحدا.. وعندما رأيتني قادما تظاهرت بالوقوف أمام الدّكّان.. تكلّمي أرجوك.. قولي أنّكِ كنتِ تنتظرينني..
- أجل.. وهل في هذا عيب؟

عندها توقّف أحمد عن المشي وأمسكها من ذراعها في لطف وتنهّد وكأنّه يلقي بحمل كان يثقل كاهله ثمّ قال لها واضعا عينيه في عينيها:

- العيب في أن تخفي عنّي ذلك.. أ تعلمين؟ نفس الهاتف الّذي هتف البارحة في أذنكِ هو الّذي سرق النّوم من عيني..
- هل قال لكَ هذا الهاتف أنّكَ ستلاقيني اليوم؟
- بل أمرني بألاّ أتخلّى عنكِ لو وجدتكِ مرّة أخرى..
- وها أنتَ ذا قد وجدتني..
- سأنفّذ وصيّة الهاتف..

قال هذه الكلمة ودسّ يده في جيب معطفه وأخرج منه وردة حمراء وقدّمها لها.. فنظرت إليها بانبهار وقالت مستغربة:

- لكنّنا مازلنا بعيدين عن فصل الرّبيع..

- هذه الوردة نمت أمام عتبة بيتنا.. لا أعرف كيف.. المهمّ أنّني أهديك إيّاها كي تذكري دائما ما يربطنا ببعض..
- لن أنسى ذلك أبدا..

* * *

فتحت آلين باب الدّار فوجدت جوزفين في انتظارها:
- أين كنتِ يا آلين؟
- عند بائع الخضر.. عند أحلى بائع خضر في العالم..
- ماذا تقولين؟ وما هذه السّعادة العارمة الّتي ينطق بها وجهكِ؟
- سعادة فقط؟ قولي نشوة.. بل أكثر.. أكثر.. تعاليْ معي إلى الغرفة سأحكي لكِ كلّ ما حصل..

أغلقتا باب الغرفة وجلستا وعندها ابتسمت آلين ابتسامة عريضة وقالت لجوزفين:
- نفّذت اليوم ما خطّطتِ له أنتِ بالأمس..
- أنا خطّطت؟
- عجبا.. أ لم تقولي لي أنّ الحلّ الوحيد لأنجو من الزّواج بجورج هو أن أحبّ شخصا آخر ليحملني بحصانه إلى أبعد أصقاع الدّنيا؟
- وهل عثرتِ عليه بهذه السّرعة؟
- إنّه القدر الّذي جمعنا ببعض وكان أسرع من كلّ شيء..

عندها طأطأت جوزفين رأسها ثمّ قالت:
- خسارة.. كان لي أمل ولو ضئيل في فشلك في العثور على الشّخص الّذي تحلمين به.. أملتُ حقّا أن تحاولي التّأقلم مع شخصيّة أخي بل وخطر ببالي أنّك ربّما ستتعلّقين به..
- دعينا من هذا الحديث الّذي يجعلني أذكر همومي كلّها.. أنا أعرف يا عزيزتي أنّ من أتحدّث عنه دوما بهذه القسوة وأحاول التّخلّص من الارتباط به يكون أخاكِ لكنّك تدركين أنّكِ أقرب النّاس إليّ.. أقرب إليّ حتّى من أمّي.. أنّكِ

لست فقط ابنة خالتي أو أخت جورج.. أنت أختي وصديقتي.. هل تفهمين يا جوزفين؟

- أجل أنا أفهمكِ.. كما أنّي لستُ حزينة من موقفكِ.. إنّي فقط أتحسّر لأنّني كنتُ أطمع أن تكوني زوجة أخي.. المهمّ الآن.. من هو صاحب الحظّ السّعيد الّذي تعلّقت به روح أميرتنا؟

- إنّه شابّ لطيف.. يدعى أحمد..

- مسلم؟

عندها حملقت آلين في ابنة خالتها وصمتت مدّة ثمّ نطقت:

- تصوّري.. لم يخطر ببالي مثل هذا الأمر.. وإن يكن..

- وإن يكن؟ إنّهم أعداؤنا..

- نحن لا نحارب المسلمين بل نحارب فقط من أجل استرجاع أرضنا.. ثمّ إنّني لست عدوّة لأحد..

- هذا يستحيل.. إن رضيتِ أنتِ بهذا فهو لن يرضى..

- لماذا يا جوزفين؟ لِمَ تفعلين هذا بي؟

- أنا لم أفعل شيئا.. حسنا متى عرفته؟

- منذ أربع سنوات، أنقذته من الموت حينما تعقّبه أحد الجنود بُغْية قتله، وبالأمس التقينا مرّة ثانية، لو لم يكن شهما ونبيلا لما انتشلني من تحت الحجارة الّتي رماني بها بعض الصّبيان حينما كنتُ ذاهبة إلى..

- لكنّكِ عدوّته شئتِ أم أبيتِ..

- مستحيل.. لن يفرّق اختلاف الأديان بيننا..

- ليست المسألة مجرّد اختلاف في الأديان.. إنّها حرب كاملة..

- لو تحدّثت معه ساعة واحدة لعرفتِ أنّه إنسان مسالم وطيّب، لا أستطيع أن أصف لكِ كم.. كم أحببته..

- ويحكِ! تتركين ابن خالتكِ لتحبّي شخصا غريبا وعدوّا لبلدك؟

- بلدي؟ أنا لم أعرف لي إلى اليوم بلدا.. وإن أردتِ الحقيقة.. مصر أولى بنا.. بدل هذا الخوف الّذي نعيشه هنا..

والشّخص الغريب الّذي تتحدّثين عنه وجدته أقرب إلى قلبي من ابن خالتي ذاك..

* * *

عاد أحمد قُبيل وقت الإفطار إلى البيت، أفطر وأدّى مع والدته صلاة المغرب، ثمّ مكث معها في المطبخ وكأنّه ما يزال ابن خمس سنوات، ساعدها قليلا في غسل بعض الأواني وإعداد الشّاي ثمّ تحوّلا إلى غرفة الجلوس..

جلست هي تستمع لبعض الأغاني في المذياع ووضع هو رأسه في حضنها وتمدّد على البساط كما اعتاد أن يفعل دوما، وقرّر أن يحادثها في الموضوع الّذي أقضّ مضجعه وقلب كيانه..

- كم سأبلغ من العمر بعد أيّام يا أمّاه؟
- بإذن الله.. ستتمّ ربيعك العشرين.. لكن فيمَ السّؤال؟
- يعني.. هل يسمح لي عمري بأن.. بأن أحبّ؟

حدّقت زينب في ابنها مذهولة ثمّ ابتسمت ثمّ انفجرت ضاحكة، فاستوى جالسا وهو يقول مغتاظا:

- ما الّذي يضحكك في سؤالي؟
- عفوا يا بنيّ.. أعوذ بالله أن يكون ضحكي من باب السّخرية منكَ أو من مشاعركَ.. على العكس يا عزيزي.. أنا أضحك من فرط سعادتي.. ابني الوحيد يقع أخيرا في أجمل فخّ..
- ماذا تقصدين؟
- اسمع يا ولدي.. ليس الحبّ مرتبطا بسنّ معيّنة.. أنا مثلا.. أحببتُ المرحوم والدك وأنا في الخامسة عشر من عمري.. رفضتُ قبله كثيرين تقدّموا لخطبتي.. جدّك محمّد رحمه الله كان رجلا متفهّما.. لم يجبرني على الزّواج من شخص لا أحبّه.. وانتظرت عبد السّلام كثيرا حتّى تقدّم لطلب يدي وانتظرت أكثر زواجنا..
- لكنّني أحببت فتاة لم ألتقها أكثر من ثلاث مرّات.. مرّة منذ أربع سنوات ومرّتان خلال هذا الأسبوع..

- وإن يكن.. إن كتبها الله لكَ فلن تعيش مع غيرها حتّى وإن كنتَ قد رأيتها في أحلامك..
- صحيح يا أمّي؟
- توكّل على الله يا ولدي.. ولكن أ لن تعلمني من تكون؟
- اسمها آلين.. وهي فتاة جميلة و..
عندها قاطعته وقد راودها الشّكّ:
- هل هي من بلدنا؟
- هذا ما كنتُ أخشاه..
- ماذا تعني؟
- كلّ ما كنتُ أخشاه سؤالك هذا..
- هل تقصد أنّها منهم؟
- للأسف نعم.. لكنّني أقسم لكِ أنّ أخلاقها شبيهة إلى حدّ بعيد بأخلاقنا وقلبها أطيب من قلبنا كما أنّها ترفض كلّ ما يقوم به أبناء ملّتها من أعمال عنف وتقتيل..
- لا تحاول إقناعي.. مهما يكن الأمر.. دينها يختلف عن ديننا..
- الإسلام لا يحرّم هذا..
ثمّ واصل:
- أنت ترينهم أعداء لنا وليس الدّين هو سبب رفضك.. ترفضين أوّل حبّ يطرق أبواب قلبي..
- عن أيّ حبّ تتحدّث؟ الأمر لا يخلو من نزوة ستفيق منها بعد فترة قصيرة.. مازلت صغيرا على هذه المسائل.. اهتمّ بدروسك ودعكَ من هذا الهراء..
- الآن صرتُ صغيرا؟ عموما أشكرك على نصائحك الثّمينة.. لكنّني أودّ أن أقول لكِ قبل أن أنام أنّ قلبك على طيبته لا يخلو أحيانا من بعض القسوة المؤلمة..
قال هذه الكلمات وانصرف إلى غرفته وأغلق بابها تاركا أمّه في حيرة من أمرها.. تسائل نفسها عن سبب انزعاجه وهي الّتي اعتقدت أنّها لم تقُل غير الحقّ الّذي لا محيص عنه.. وتبحث في آن واحد عن طريقة تداوي بها الجرح الّذي سبّبته

لولدها.. ولم يُغمض لها جفن طوال تلك اللّيلة وهي تقلّب في ذهنها ما دار بينها وبين أحمد من حوار وتفتّش عن حلّ وسط يرضي كلا الطّرفين.. حلّ يقتنع به أحمد حتّى يبتعد عن تلك الفتاة بإرادته، وترتاح به الأمّ حتّى لا تكون لها كنّة من الأعداء الّذين قتلوا جلّ أفراد عائلتها وصولا إلى ابنتها آمنة..

وفي الصّباح، استقبلت زينب كعادتها أحمد وهو يستعدّ للذّهاب إلى المعهد فبادرت بالقول:

- صباح الخير يا أحمد..
- صباح الخير..
- هل تناولت سحورك البارحة؟
- أجل..
- هل مازلت غاضبا منّي يا ولدي؟
- كلاّ..
- اسمعني جيّدا يا أحمد.. سأسألك سؤالا واحدا وأريد منكَ فقط إجابة صريحة عنه..
- وما هو؟
- هل تقبل يوما أن تضع يدك في يد من قتل أختك وصديقك؟
- لكنّ آلين لم تفعل ذلك..
- وإن يكن.. أسرتها وعشيرتها هم من فعلوا ذلك..
- وما ذنبها هي؟ لقد سبق وقلتُ لكِ أنّها ترفض كلّ تصرّفاتهم..
- حسنا إذن.. لو كانت ترفض ذلك كما تقول فعليها أن تقبل العيش معكَ هنا وأن تنظمّ إلى أهلك وتعتنق دينكَ..
- وهل ستوافق عائلتها على ذلك؟
- لو كانت تحبّك حقّا لن تهمّها موافقة أحد وستكون معكَ أينما ذهبتَ.. اجعله امتحانا لها كي تختبر صدق مشاعرها.. وأنا أعدك إن نجحت في هذا الامتحان فستكون ابنتي كما أنتَ ابني.. ولن أرضى لكَ زوجة غيرها..

وعندها تهلّلت أسارير أحمد بعد أن كان وجهه منقبضا.. وأشرقت ابتسامته من جديد وارتمى في أحضان أمّه يشكرها ويُكبِر فيها حكمتها ورجاحة عقلها ويدعو لها بطول العمر.. ثمّ غادر البيت والفرحة تملأ قلبه..

* * *

وقبيل العصر، في الوقت الّذي يلتقيان فيه كلّ يوم نظر أحمد إلى موقع لقائهما المعتاد فلم يجدها.. انتظر قدومها برهة من الزّمن.. وعندما لم يظهر لها أيّ أثر لم يطق صبرا وقصد منزلها.. كان متشوّقا لتنفيذ ما طلبته منه أمّه.. لم يكن متشوّقا لنتيجة الاختبار إذ كان متأكّدا من نجاحها فيه بتفوّق بل كان متشوّقا لأخذها معه لتراها زينب وتبدي رأيها فيما بعدُ في ذوق ابنها.. كان يمشي يدفعه الأمل ويحدوه الحبّ..

كانت هي واقفة في شرفة غرفتها تفكّر مليّا فيما قالته لها جوزفين أمسا، بل إنّ كلام ابنة خالتها قلب كيانها وجعلها تعزف عن الذّهاب إلى أحبّ مكان لقلبها، المكان الّذي تحبّ أن تقابل فيه أغلى إنسان على فؤادها.. كان الحزن يغشي روحها ويعتّم الجوّ من حولها.. فأغمضت عينيها متمنّية في سرّها لو يتمثّل لها أحمد عندما تفتحهما.. وكان أن تحقّق ما تمنّته.. عندما فتحت أجفانها وجدت الشّاب واقفا يلوّح لها بيديه.. لم تدر آنذاك ما تفعل.. شعرتْ في ذلك الوقت بمزيج من الفرحة والخوف يجتاحان قلبها.. كانت فرحة بلقاء أحمد وخائفة من أن يراه أحد أفراد العائلة فتكون نهايته وخيمة.. وبدون تفكير.. أشارت إليه أن يبتعد قليلا عن المكان وينتظرها حتّى تنزل..

وما هي إلاّ هنيهة حتّى كانت تقف حذوه ووجهها يشرق بشرا تمازجه حيرة واضحة فما كان منه إلاّ أن بادرها بسؤاله:

- لِمَ تأخّرت عن القدوم إلى مكاننا المعتاد؟
- أنا لم أتأخّر.. لم أكن قادمة من الأساس..
- حقّا؟ يبدو أنّكِ لم تشتاقي إليّ كما اشتقتُ إليك..
- كفى هراء يا أحمد.. أنت تعلم جيّدا ما أكنّه لكَ في قلبي..

- ما الحكاية إذن؟
- الحكاية مشكلة فجّرتها في ذهني ابنة خالتي البارحة..
- خيرا إن شاء الله..
- قالت لي تلك الملعونة أنّكَ.. أنّك مسلم ويستحيل أن تقبل بي شريكة لحياتك.. لأنّني مهما يكن ابنة أعدائك..
- ماذا؟ هل تقصدين أنّني الآن ألهو بمشاعرك وأعبث بأحاسيسك؟ لو فكّرت مجرّد التّفكير في هذا الأمر لما كنتُ مسلما ولجازت عليّ لعنة الله..
- أرجوك لا.. بعُد عنك كلّ الشّرّ.. أنا لم أقصد ما فهمته.. أنا قصدت أنّك حتّى وإن قبلتني فإنّ عائلتك سترفضني..
- سبحان الله.. إنّه ذات الموضوع الّذي دار بيني وبين أمّي ليلة البارحة.. طرحت عليها مسألة ارتباطي بك.. وعندما علمت باختلاف الدّين..
- رفضتني أ ليس كذلك؟
- في البداية.. فعلت ذلك.. لكنّها صباح اليوم قالت لي أنّها لن توافق عليكِ إلاّ لو قرّرت الانضمام إلى عائلتي واعتناق الإسلام.. ما رأيكِ؟
- كلام والدتك معقول جدّا.. بل هو دليل على حبّها لكَ وعلى حكمتها ورجاحة عقلها ولكن..
- ولكن ماذا؟ ظننتك ستوافقين دون أدنى تردّد..
- إن كان الأمر متوقّفا عليّ فأنا جاهزة.. لكنّ المشكلة العويصة هي أسرتي..
- وما دخل أسرتكِ بحياتكِ؟.. أنت حرّة..
- ليس الأمر بهذه البساطة.. أنت لا تعرفهم أبدا ولا تعرف ما يمكن أن يفعلوه بنا لو علموا بوقوفي الآن معك فضلا عن زواجي بكَ.. وخاصّة جورج..
- أخوكِ؟
- بل.. بل خطيبي..

وعندها تسمّر أحمد في مكانه وتسارعت نبضات قلبه واحمرّ وجهه ثمّ اصفرّ وتصبّب العرق على جبينه رغم برودة الطّقس.. وتمتم:

- ماذا تقولين؟

- أرجوك يا أحمد لا تسئ فهمي..

- أين خاتم الخطبة إذن؟ أم أنّكِ تخلعينه كلّ مرّة قبل مقابلتي حتّى يكتمل بناء الشّخصيّة في الدّور المسرحيّ؟

- أرجوك دعني أفسّر لكَ.. لو كنتُ أريد التّمثيل كما تعتقد لما نطقت بنفسي وقلتُ لكَ الحقيقة.. جورج ليس خطيبي بالمعنى الّذي فهمته.. إنّه ابن خالتي.. خطبوه لي مذ كان سنّي ثلاثة أعوام.. أجبروني أن أكون خطيبته مع أنّي أفضّل الارتماء في النّار على مجرّد التّفكير فيه.. أقسم لكَ أنّني منذ ألبسني هذا الخاتم منذ سنوات وهو مرميّ في درج مكتبي لا أرتديه إلاّ أمامه.. خوفا منه..

- خوفا منه؟ هل هو وحش؟

- بل أبشع.. لو علم أنّني أرفض مسألة الزّواج به لما توانى عن ذبحي..

- ولِمَ لم تواجهيه برفضك له من قبل؟

- لم يترك لي فرصة أوضح له فيها موقفي.. كما أنّني كنتُ مستسلمة لقدري قبل أن أعرفك.. ولو أنّي آليت على نفسي أن أنتحر لو اقتضى الحال هربا من الزّواج به..

- ما الحلّ إذن أمام كلّ هذه المصائب؟

- الحلّ أن نصبر حتّى يأتي الزّمن بالحلّ.. المهم الآن أن تُعلم أمّك بموافقتي على المبدأ ولكنّني أنتظر فقط الوقت المناسب حتّى يتمّ ما أرادت..

كانت موافقتها بُشرى خير بالنّسبة لأحمد.. لكنّ هذا لم يمنع إحساسه بنوع من الضّيق والخوف من كلّ تلك العقبات الّتي أخذت تعترض طريق سعادته مع من اختارها قلبه.. وبعد كلّ ما قالته عن خطيبها ذاك ازدادت ثقته بها وأحبّها أكثر من قبل.. وأيقن أنّ تلك النّفس الصّافية لن تقدر أبدا على الكذب

والخداع والنّفاق.. لكنّه في آن واحد تعجّب من إمكان وجود شخص مثل جورج بالقسوة الّتي تحدّثت عنها آلين.. ورغم ما يعرفه عن الأعداء لم يتبادر إلى ذهنه لوهلة واحدة أنّهم يمكن أن يطبّقوا وحشيّتهم على بعضهم البعض.. وأنّ تلك الوردة الحمراء يمكن أن تترعرع وسط تلك الغابة من الأشواك..

* * *

عاد في الوقت الّذي يعود فيه كلّ يوم إلى البيت.. وقبل أن يحلّ وقت أذان المغرب مكث أحمد مع أمّه في المطبخ بينما كانت تضع اللّمسات الأخيرة على ما أعدّته للإفطار.. وبعد صمت طويل أدركت زينب بخبرتها ما يخفي وراءه من كلام لا ينتهي، نطق أحمد..

- التقيتُ اليوم آلين..
- وما بكَ تقولها هكذا بتردّد؟ هل رفضت ما عرضته عليها؟
- كلاّ.. هي لم ترفض المبدأ لكنّها طلبت منّي أن أنتظر حتّى..
- حتّى ماذا؟
- لا أعرف.. لقد فاجأتني بحتميّة رفض أهلها للموضوع..
- وطبعا هي لا تقدر على مخالفة إرادتهم..
- أبدا.. إنّها لا تطلب الانتظار تقديرا لرغبتهم بل خوفا منهم..
- هل سيقتلونها يعني؟
- أجل.. هذا ما تخشاه المسكينة.. وربّما قتلوني معها..
- يا لهم من مجرمين!
- وأكثر من تخشاه ابن خالتها.. إنّها تتحدّث عن وحشيّته وكأنّه لا يمتّ لها بصلة..
- وماذا ستفعلان الآن؟ أنا خائفة عليك يا أحمد..
- سنصبر قليلا.. على كلّ حال مازال العُمر أمامنا حتّى نفكّر في الزّواج..

- كما تريد يا ولدي.. لكن عدني ألاّ تعرّض نفسك للخطر أبدا..

فابتسم أحمد مدركا أنّ عيب الخوف لم يزل بعد متمسّكا بشخصيّة أمّه وقال:

- حاضر.. أعدك يا أمّاه..

ورغم ما قاله لأمّه عن الصّبر وعدم حلول الوقت المناسب للتّفكير في الزّواج لم يقتنع أحمد تماما بالأمر.. لم يستطع أن ينزع من مخيّلته فكرة أن تكون آلين موعودة لغيره.. ومن يكون هذا الغير؟ إنسان لا قلب له حسب ما وصفته هي ذاتها.. وإن كان ابن خالتها.. إلاّ أنّه قادر -على حدّ تعبيرها- على إتيان أيّ فعل لو فكّرت فقط في الابتعاد عنه.. هل سيخطف منه أعداؤه هذه المرّة أيضا أحبّ النّاس إليه كما خطفوا منه من قبلُ أخته آمنة وصديقه عبد الله؟ هل يقرّر الابتعاد عن محبوبته حتّى يتركها تنعم بما كتبَ الله لها من عيش مع جورج هذا الّذي لا بدّ أنّه يحبّها كثيرا إلى الحدّ الّذي يجعله يفكّر في قتلها إن ابتعدت عنه؟ أم يصمّم على الارتباط بها حتّى يعيش معها أو يموت معها؟

سلبت كلّ هذه التّساؤلات النّوم من عيني أحمد ولم يهنأ له بال حتّى قرّر طرحها على آلين علّه يعثر لديها على ما يشفي غليله ويريح فؤاده وضميره..

وما إن غادر المعهد في الغد حتّى اتّجه مسرعا إلى موقفهما فسرّه أن رآها من بعيد تشير إليه بيدها.. هرول إليها وألقى التّحيّة ثمّ أخذا يتهاديان في مشيهما.. فبادر هو بالقول:

- لديّ عدّة تساؤلات أريد أن أعرف منكِ إجاباتها..

- تفضّل.. أنا رهن إشارتك..

- حسنا.. لو طلبتُ منكِ أن تختاري بين شيئين.. أنا والموت أم جورج والحياة.. أيّهما تختارين؟

- أختاركَ أنت طبعا حتّى وإن ألقوا بي في النّار..

- يعني لو تركتك تنعمين بالحياة مع جورج خوفا عليكِ.. هل سترفضين ذلك؟

- ابتعادي عنكَ هو العذاب، والحياة مع جورج هي الموت نفسه..
- لكنّ ارتباطنا يمكن أن..
- لو كنتَ خائفا على نفسك.. أتركني وشأني.. لا يهمّك بعدها إن عشتُ مع جورج أو دفنتُ نفسي بالحياة..
- لا تقولي هذا.. أنا لستُ خائفا على نفسي وأنتِ تدركين هذا..
- انزع إذن كلّ هذه الهواجس من مخيّلتك.. أ تعلم؟ مجرّد طرح أسئلة كهذه عليّ لا يعني إلاّ شيئا واحدا.. هو أنّك ما زلت تشكّ في مشاعري نحوك.. لكن أظنّك الآن قد تأكّدت منها..
- أنا لم أشكّ لثانية واحدة في مشاعرك.. لكنّني أردتُ فقط أن أعطيك فرصة أخيرة حتّى تعيشي بسلام.. وبرفضكِ لها ارتاح ضميري.. أنت من الآن لي.. ولن تكوني لغيري بإذن الله..
- هذا عهد أقطعه على نفسي..

* * *

V

ومرّت الأيّام وشارف شهر رمضان على نهايته.. خرجت زينب من المطبخ حاملة بين يديها طبق الإفطار.. وضعته على المائدة وجلست بجانب ولدها تنتظر الإعلان عن حلول وقت أذان المغرب.. فتساءل أحمد:

- أين الخالة عائشة؟ يبدو أنّها لن تفطر معنا اليوم؟

- عادت إلى بيتها حينما أعلمتُها أنّ تلفازنا أصابه عطب، أنت تعلم كم تحبّ عائشة الزّعيم الّذي حمل بلدنا على أكتافه وسهر على رعايته سنين طويلة.. إنّها تشعر بأنّها تسانده في محنته حينما تتابع أخبار علاجه أوّلا بأوّل على شاشة التّلفاز..

- كلّنا نحبّ أبا عمّار يا أمّاه.. أعاده الله لنا سليما معافى.. حتّى يكون عيدنا هذه السّنة عيدين..

- سيكون ثلاثة أم أنّك نسيتَ عيد ميلادك؟

- ماذا ستهدين لي بهذه المناسبة يا أمّاه؟

- سأقدّم لكَ هديّة غالية ظللت محتفظة بها طوال سنين عمرك..

- رضاكِ عليّ يا زنّوبة هو أغلى هديّة..

عندها انطلق صوت الأذان فتناول أحمد تمرة وشرب كوبا من الماء ثمّ نهض وقبّل جبين أمّه قائلا:

- اسكبي لي الحساء.. سأصلّي المغرب في المسجد ثمّ أعود لأتعشّى معكِ يا عزيزتي..

كانت زينب تنتظر بفارغ الصّبر مرور اليومين اللّذين يفصلانها عن عيد ميلاد ابنها حتّى تقدّم له الهديّة الّتي صمّمت على الاحتفاظ بها طوال عقدين تقريبا وصمّمت أكثر على تسليمها له يوم يبلغ ربيعه العشرين، وكانت تدعو الله دائما أن يمدّ في عمرها وعمره حتّى يأتي هذا اليوم.. وحقّق الله رجاءها.. لكنّها وهي جالسة أمام مائدة الطّعام في تلك الآونة أحسّت بأنّها رغم صبرها عشرين سنة لن تقدر على الصّبر

يومين.. باتت تخاف عليه أكثر من قبل.. خاصّة بعد أن عرف تلك الفتاة وتعلّق بها.. صارت ترى في عينيه بريق إصرار كان يشتدّ يوما عن يوم ويزداد لمعانا.. بريقا شبيها بذاك الّذي كانت تراه "أمّ الشّهيدين" في عيني ابنها عبد الله.. لكنّ زينب ليست في مثل جَلَد الخالة عائشة ولا في مثل قوّتها.. زينب رقيقة حسّاسة تخاف على أحمد أكثر ممّا تخاف على نفسها.. وحينما وضعت أمامه عقبة إقناع الفتاة باعتناق الإسلام كانت متأكّدة أنّها لن توافق على هذا الشّرط.. لكن كيف السّبيل الآن وقد وافقت رغم رفض عائلتها؟ لقد ازداد الأمر تعقيدا..

كانت تفكّر في كلّ هذا ثمّ انتبهت إلى أنّها لم تنهض بعدُ لأداء فريضة المغرب فطردت كلّ الأفكار من مخيّلتها وتحاملت على نفسها وهي تنهض وتستعيذ بالله من الشّيطان الرّجيم الّذي ألهاها بالوساوس عن أداء واجباتها..

وما إن طوت السّجّاد وانتحت ركنا من المائدة استعدادا لقدوم ابنها حتّى أحسّت براحة بال تغمرها وبطمأنينة لا مثيل لها.. وازداد إحساسها بالأمان بدخول أحمد عليها وجلوسه مسرعا أمامها وهو يفرك يديه ويقول:

- هيّا اسكبي لي قليلا من حسائك اللّذيذ يا أمّاه..

فابتسمت زينب وقالت وهي تسكب الحساء:

- هل قابلتَ آلين اليوم؟

- أجل.. بالمناسبة لم أخبرك شيئا.. أ لم أقل لكِ أنّ الله اختارها دون غيرها شريكة لحياتي؟

- لم أفهم..

- سأفهمك.. من غرائب الصّدف أنّني وآلين مولودان في نفس اليوم.. الحادي عشر من نوفمبر من سنة 1984..

- هل هذا صحيح؟ يعني هذا أنّ عيد ميلادها..

- بعد يومين كذلك..

- وماذا قرّرت أن تهديها؟

- بعد تفكير طويل قرّرت أن أشتري لها خاتما بسيطا..

- وهل سيكون خاتم الخطبة يا تُرى؟

- لِمَ لا؟ لن أجد أجمل من هذه المناسبة..
- لا داعي لأن تشتريه.. لي خاتم أهداه لي والدكَ في عيد زواجنا العاشر وكنتُ آنذاك حاملا وآليتُ على نفسي ألاّ أرتديه وأن أهديه للمولود الجديد لو كانت بنتا.. قدّر الله أن ترحل آمنة عن الدّنيا دون أن تلبسه بل دون أن تراه.. سيكون لآلين..

قالت هذه الكلمة وانحدرت على خدّها عبرة ذكرى مؤلمة.. فأخذها أحمد بين ذراعيه ومسح وجنتها بكفّه وهو يقول:

- أنا لم أر أمّا تملك قلبا أطيب من قلبكِ يا أمّي.. وأنا أعدكِ أنّ آلين ستكون عند حسن ظنّك وأكثر..

* * *

ومرّ اليومان.. وأشرقت شمس اليوم الّذي كانت زينب تنتظره منذ أمد بعيد.. نهضت الأمّ من سريرها على صوت أحمد يغسل وجهه فخفّت إلى صندوق مجوهراتها وأخذت تبحث عن شيء ما فيها فدخلت الخالة عائشة وقالت لها:

- أ مازلت مصرّة على إعطائه إيّاها؟
- أجل..
- وإن سألك من أين اشتريتها.. هل ستقولين له الحقيقة؟
- عمّ تتحدّثين؟ ليس ثمّة حقيقة أخفيها.. ثمّ إنّ أحمد لن يسألني من أين اشتريتها.. قولي كلاما طيبا يا امرأة..

عندها طرق أحمد باب الغرفة:

- هل بإمكاني الدّخول؟
- تفضّل يا ولدي..

ثمّ تنفّست الصّعداء وهي تقول:

- الحمد لله لقد وجدتها.. خلتُ نفسي قد أضعتها.. كدتُ أجنّ..

فقطّب أحمد جبينه قائلا:

- عمّ كنتِ تبحثين يا أمّي؟
- عن هديّتك يا عزيزي.. كلّ عام وأنت بخير..

نطقت بهذه العبارة وهي تمدّ له من بين كفّيها قلادة من الفضّة.. كانت القلادة ذاتها الّتي كانت معلّقة على صدره عندما دخل بيت عائلة عبد السّلام لأوّل مرّة.. تسلّم أحمد الهديّة من يد أمّه وانبرى يقبّل جبينها ويشكرها.. لكنّ الحيرة دبّت في نفسه وبدأت تداخله.. ترى من أين لوالدته بالمال حتّى تشتري له قلادة تبدو باهظة الثّمن؟ وماذا قصدت حينما قالت له منذ يومين أنّها ظلّت محتفظة بالهديّة طوال سنين عمره؟ لكنّه رغم ذلك أبى أن يكدّر صفو يومه السّعيد، فانتهز فرصة انشغال الخالة عائشة في المطبخ وقال لأمّه في صوت خافت:

- أين هو الخاتم الّذي..

فقاطعته حينما وضعت الخاتم في كفّه هامسة:

- لم أنس وعدي لكَ.. هاك هديّة عروسك.. صحيح أنّه خاتم بسيط ولكن..

- إنّه رائع.. شكرا لكِ يا أمّي.. ستفرح به آلين كثيرا..

- أسرع إليها.. أحسبها في انتظارك..

عندها نطق البشر من وجهه ولم يدر من فرط سروره ما يفعل.. فحثّته قائلة «هيّا اذهب..» فما كان منه إلاّ أن هرع إلى باب الدّار..

انطلق إلى آلين حتّى يهنّئها بعيد ميلادها ويحتفلا معا بتلك المناسبة السّعيدة.. وحين وصل نظر إلى ساعته ثمّ اقترب منها:

- لم أتأخّر أكثر من عشر دقائق..

- وفيمَ تأخّرك هذا؟ أ لا..

فقاطعها:

- قبل العتاب.. هذه هديّتك.. إنّه الخاتم الّذي سيربطنا ببعض.. وسيُلغي الخاتم الّذي جلبه لكِ جورج.. رغم أنّ خاتم جورج أغلى ثمنا..

- أغلى؟ لا أذكر أنّه جلب لي شيئا.. هذه أوّل وأجمل هديّة أتلقّاها في حياتي..

ثمّ صمتت قليلا وقالت بعدها مركّزة بصرها على عنق أحمد:

- ما هذا الّذي يلمع تحت سترتكَ؟.. قلادة؟

- إنّها سبب تأخّري عنكِ.. إنّها هديّة أمّي لي بمناسبة عيد ميلادي العشرين..

قال هذه العبارات وهو يخرج القلادة من تحت سترته.. فأمسكتها آلين واقتربت أكثر.. وتأمّلتها في دهشة.. ثمّ حملقت فيها.. وحدّقت في وجه أحمد وصرخت وقد دسّت وجهها بين كفّيها.. «غير معقول.. غير معقول..»

* * *

نظر أحمد إلى الفتاة فوجدها قد شارفت على الانهيار فالتفت باحثا حوله عن مكان يجلسها فيه فوقعت عيناه على كرسيّ قُرب دكّان بائع الخضر.. ودون مقدّمات هرع به إليها.. أجلسها عليه ثمّ أخذ يمسح بكفّه العرق الّذي تصبّب على وجنتيها واختلط بدموع عينيها ثمّ قال لها:

- هل أنت بخير الآن؟

- أجل..

- أخبريني إذن عن سبب ما حصل لكِ..

- لا أستطيع.. لا يمكن..

- أستحلفكِ بحّبنا.. بل بحياتي.. أن تخبريني بالأمر..

عندها وقفت الفتاة وطأطأت رأسها قائلة:

- ما دمت مصرّا.. سأحكي لك كلّ شيء.. هل أنت مستعدّ لسماع قصّة مرّ عليها أربعون عاما؟

- طبعا..

عندها تغلّبت على دموعها وقالت بنبرة حزينة:

«منذ السّتّينات، عاشت عائلة تدعى عائلة جاد في القاهرة بمصر.. كان جاد وزوجته ماري يملكان مصنعا صغيرا يقتاتان منه مع ابنتيهما أنجيل وأليس.. كانت أنجيل تكبر أختها بسنة واحدة وكان من يراهما يخالهما توأما.. كانتا تحلمان بحياة سعيدة في القاهرة قبل أن تأتي حرب 1967 لتقضي

على آمالهما وتطمس أمانيهما.. تأمّم مصنع جاد ولم يعد بإمكان تلك الأسرة أن تكمل حياتها في ذلك البلد.. ومع الأبواب الّتي فُتِحت لليهود على مصراعيها آنذاك.. ومع الوعود الّتي قطعتها إسرائيل على أبنائها في كلّ أصقاع العالم بالحياة الرّغيدة والعمل المتوفّر هبّ جاد –كما فعل كثيرون غيره- لتلبية نداء بلده الّذي بدأ يظهر كما تخرج النّار من تحت رمادها بمجرّد هبّة نسيم.. سافر إلى بلده المزعوم لا حبّا فيه ولا وطنيّة منه بل بحثا عن عمل يسدّ به رمق زوجته وبنتيه.. وكان له ما أراد.. بعد أسابيع أعطاه بلده المنزل والعمل.. وبعد سنتين أعطى لابنتيه زوجين.. حدّاد يدعى داود لأنجيل وصاحب دكّان لبيع العطورات يدعى إسحاق لأليس.. وقبل زواجهما اشترطتا على الزّوجين أن يعيش أربعتهم تحت سقف بيت واحد.. فلم يُبدِ الرّجلان أيّة معارضة وظلّ كلّ شيء على ما يرام.. تحوّلت أليس وأنجيل مع زوجيهما إلى بيت أوسع من بيت والدهما.. ولم تمرّ ثلاث سنوات حتّى أنجبت أنجيل ابنها البكر جورج.. ونشأ جورج فتى معقّدا.. لا يحبّ أحدا.. ولا حتّى أمّه الّتي أنجبته.. وهذا ما حدا بالجميع إلى الابتعاد عنه وعن شراسته.. نشأ وبداخله نقمة على كلّ من حوله.. وحينما بلغ سنّه الثّامنة شاءت الأقدار أن تضع أليس مولودتها الأولى بعد عُقم طويل في نفس اليوم الّذي أنجبت فيه أختها أنجيل ولدها الثّاني جوزيف.. كانت آلين ابنة أليس تصغر جوزيف ابن أنجيل ببضع سويعات.. وكانت فرحة الأمّين بطفليهما لا توصف..

وبعد مرور أسبوع واحد على الولادة، دخلت أنجيل إلى غرفة أليس وقالت لها:

- أريد أن أطلب منكِ شيئا يا أختاه..
- أنتِ تأمرين يا عزيزتي..
- جوزيف..
- ما به؟
- إنّه يطلب يد ابنتك آلين..

- ماذا تقولين؟ كفى مزاحا يا أنجيل..
- أنا لا أمزح.. البارحة زارني في منامي شبح أبيض اللّون وقال لي بالحرف الواحد «ابنكِ.. موعود.. لابنة أختك»

وكانت أليس تؤمن بوجود الجنّ والعفاريت وتفسّر الأحلام كما أنّها كانت دائما تقول أنّها تخاف أذاهم لذا أجابت أختها من فورها:

- طبعا يا أنجيل.. يجب أن ننفّذ هذا الكلام وإلاّ عاد علينا رفضه بالوبال..

ومنذ ذلك الحين، ارتبط اسم آلين باسم جوزيف.. ومن غرائب الأمر أنّ الصّغيران كانا يميلان إلى بعضهما كثيرا.. كانا دائما يلعبان معا ويأكلان معا وكأنّهما شخص واحد.. وبذلك ازداد الحقد الّذي كان يملأ قلب جورج.. وصار لا يطيق رؤية أخيه.. أضيفت عقدة الغيرة إلى مجموعة العقد الّتي تعجّ بها نفسه.. ذلك لأنّ جوزيف كان طفلا هادئا، رصينا، ذكيّا، طيّب القلب، رقيق المشاعر رغم صغر سنّه.. كما أنّه كان وسيما، كان شعره أسودا وعيناه بلون العسل.. وكانت آلين تشبهه في طباعها ومظهرها.. شعر أسود وبشرة بيضاء ووجنتان بلون الورد وعينان عسليّتان.. كانت جميلة لذلك حسد جورج أخاه على تلك الفتاة ولم يكن يعلم أنّ القدر يخفي أشياء كثيرة ربّما كان أغلبها لصالحه..

وأتت انتفاضة الحجارة وقيل يومها أنّ توقّعات أليس الّتي لم تخب أبدا تنذر بالويل.. لم تمرّ تلك الشّهور قبل أن تحمل معها أغلى ما تملك تلك العائلة في ذلك البلد..

ذات صباح، وبعد مرور أيّام على اندلاع الانتفاضة قرّرت العائلة الذّهاب إلى الصّلاة.. وصادف أن كان جوزيف نائما.. صادف أنّه لم يستيقظ كالعادة مع آلين.. لذلك خيّر الجميع تركه مع جدّته ماري الّتي انتقلت للعيش بينهم بعد وفاة زوجها.. غادر الجميع البيت وكانت آلين تسير وتلتفت وراءها وكأنّها استشعرت أنّها لن ترى جوزيف مرّة أخرى.. كانت تتباطأ في المشي وتقول لأمّها:

- لِمَ لمْ نأخذ جوزيف معنا ؟
- لأنّه نائم.. لو نمتِ مثله لكنتِ الآن معه ومع جدّتك..
- أريد أن أعود إليه..
- غير معقول.. لقد قطعنا نصف الطّريق ولا يمكننا الرّجوع بكِ الآن.. كفى دلالا يا آلين..
- إنّني أشعر بالملل..

لم تكن الصّغيرة في الحقيقة تقصد من كلامها الملل بالمعنى الّذي فهمته أمّها وفهمه الجميع.. بل كانت تقصد القلق.. لم تحسن الصّبيّة التّعبير عن الخوف الّذي تملّكها حينما تركت ابن خالتها لوحده ولم تبق معه.. أحسّت بالوحدة والفراغ ولم تكن المسكينة تدري أنّها ستتعوّد عليهما بطول المدّة.. كانت تنتظر انتهاء الصّلاة بفارغ الصّبر حتّى تعود أدراجها إلى المنزل أين ستجد الفتى في انتظارها.. وطوال الوقت كان جورج يحاول تسليتها لكنّها كانت تنظر إليه شزرا وتحاول أن تصبر عليه قليلا علّ الوقت يمضي وتلاقي جوزيف.. وكان جورج يحسّ بمعاملتها اللاّمبالية له وكان ذلك يحزّ في نفسه كثيرا ويضاعف نقمته على أخيه الّذي ظفر على صغر سنّه بكنز كان من الممكن أن يحظى به هو..

وحان وقت العودة إلى البيت.. وفي الطّريق سُمِع مزيج من الأصوات المرعبة.. رشّاشات ومدافع وقنابل.. دويّ يعقبه دويّ.. خافت أليس على ابنتها فأخذتها في حضنها وأسرع جورج يختفي وراء والده.. وعندها قالت أليس:

- لقد أخطأنا حينما جلبنا معنا الأولاد.. كان علينا أن نتركهم في البيت مع أمّي.. هناك نأمن على الأقلّ عدم تعرّضهم لهذه المخاطر..

لكنّ أليس أخطأت هذه المرّة التّقدير إذ أنّ المخاطر الّتي تعرّض لها البيت كانت أشدّ وأعنف من تلك الّتي واجهوها في طريق العودة..

ما إن وصل الجميع إلى البيت حتّى وجدوه حطاما.. تهدّم البيت الّذي آواهم أكثر من عشر سنوات.. وعندما وقعت عين

أنجيل على أكداس الحجارة والرّمال الّتي كانت كلّ ما بقي من ذلك المنزل جلست على ركبتيها ووضعت يديها على أذنيها وأخذت بعدها تمسك شعرها وتولول «ابني.. جوزيف.. ابني..» وعندها ذكرت أليس ما أنساها إيّاه وقع الصّدمة على نفسها وصرخت «أمّي..»

حينئذ قامت أنجيل من مجلسها ذاك وهرعت إلى الحجارة تبعدها وإلى الرّمال المكدّسة تحفر فيها في حركات جنونيّة وهي تقول لاهثة «سأجده.. سأجد ابني.. جوزيف مازال حيّا.. جوزيف ليس تحت الأنقاض..» وأخذ زوجها داود يمسكها ويبعدها عن المكان محاولا إسكاتها حينما كانت هي تصرخ وتنتحب وتنتفض وجسمها يرتعد.. في حين كان إسحاق واقفا بجانب أليس الّتي كانت هادئة أكثر من أختها ومكتفية بذرف السّخيّ من الدّمع على المفقودين اللّذين رجّح الجميع أنّهما صارا جثّتين تحت الأنقاض..

كان داود يصبّر زوجته ويقول لها:

- هيّا نذهب الآن إلى بيت والدكِ المقفل منذ عشرة أعوام حتّى يأتي الأعوان صباحا للبحث تحت الأنقاض عن..

- صباحا؟ سيموت.. ابني عندها سيموت.. يجب أن يخرجوه الآن.. كي يتنفّس.. كي يعيش..

- لكنّه..

- من يسمعك تتحدّث بكلّ هذا البرود لا يحسبك والده.. بل يخالك لا تمتّ له بأيّة صلة.. حتّى الكلاب تبكي على صغارها حينما..

- لا داعي لهذا الحديث الآن.. أنتِ متعبة..

- كلاّ لستُ متعبة ولن أتحرّك من هنا حتّى أرى ابني..

ومكثت أنجيل ساعات حتّى خيّم اللّيل في انتظار قدوم من سيقوم برفع الأنقاض ولم ترض أختها تركها لوحدها فبقيت معها حتّى أتى الأعوان.. أخذوا يحفرون ويبعدون الحجارة والرّمال فأخرجوا الجدّة وقد فارقت الحياة لكنّهم لم يجدوا جوزيف..

ظلّت آلين مع والدها وزوج خالتها وجورج في بيت جدّها القديم.. كانت الفتاة ساهمة.. تستعرض شريط ما حدث يومها وتحاول فهم ما يدور حولها لكنّها رغم نباهتها وفطنتها لم تفهم شيئا.. لم يكن ما يعوزها هو الذّكاء بقدر ما كانت تفتقر إلى الاستيعاب.. لم يجل بخاطرها أبدا أنّها لن ترى جوزيف مرّة ثانية.. وأنّ اللّحظة الّتي كانت تنتظرها منذ الصّباح حتّى تلاقيه لن تأتي أبدا.. وبينما كانت واجمة هكذا إذ بأليس تدخل البيت صحبة زمرة من الرّجال يساعدونها على حمل أنجيل.. تقدّم داود وإسحاق.. شكرا الجماعة وأسندا المرأة حتّى أوصلاها إلى غرفتها.. أخذت أليس تسقيها الماء وتغمرها بالعطور حتّى استفاقت فتركها الجميع في الغرفة تستريح وأخذ داود يسأل أليس عمّا أصاب زوجته فقالت المسكينة وهي تتحامل على نفسها حتّى تقدر على مسك دمعتها:

- بينما كنّا جالسين قريبا من تلك الأطلال.. قدم الرّجال وأخذوا ينبشون تحت الأنقاض.. تعلّقت أختي ببعض الأمل.. الأمل أن يجدوا ابنها.. لكنّهم بعد بحث طويل ولأي أخرجوا جثّة أمّي..

عندها قال داود:

- وجوزيف.. هل مات؟
- لم يعثروا عليه..
- كيف هذا؟
- لا أدري.. المهمّ أنّ أنجيل سقطت مغمى عليها ما إن سمعت ذلك الخبر.. لم تكن المسكينة تنتظر هذه المفاجأة.. كانت تنتظر رؤية ابنها حيّا كان أو ميّتا..

ولم تقدر أليس على مواصلة الحديث.. لم تقدر على الصّمود أكثر من ذلك أمام حزنها وأمام المأساة الّتي حفّت بتلك العائلة دون سابق إنذار.. وعندها قطع إسحاق صمته بأن قال محاولا التّفكير بعقله..

- دعونا نفكّر الآن في مراسم دفن أمّك يا أليس..

وعندها انفجرت المرأة ببكاء مسترسل لم تعد قادرة على إمساكه.. ثمّ هرعت إلى غرفة أختها كآخر ملاذ لها في تلك اللّحظة العصيبة.. فتحت باب الغرفة فوجدت أختها ممدّدة على السّرير ودموعها تنزل مدرارا على جانبي وجهها.. كانت تبكي في صمت وكأنّ دموعها تهطل رغما عنها.. اقتربت منها أليس فنطقت أنجيل:

- لا داعي للنّحيب يا عزيزتي.. هذا قدر ويجب تحمّله..
- أنت الّتي تقولين هذا يا أنجيل؟
- أجل.. معكِ حق.. عهدكِ الجميع صبورة أكثر منّي.. لكنّني اليوم سأثبت العكس.. سأحاول الصّمود أمام هذه العاصفة الّتي حلّت بنا..
- لكنّه ابنكِ يا أختاه..
- ابني؟ ابني لم يمت.. أ ليس كذلك؟ سنجده.. أ ليس كذلك؟
- أنا .. لا أعرف..
- كيف هذا؟ أنا متأكّدة أنّك تعرفين.. كما عرفتِ من قبل أنّ كارثة ما ستقع لنا..
- كلاّ يا أنجيل.. أنا لا يمكنني التّنبّؤ بالغيب..
- أنا.. أنا لم أقصد.. أردتُ فقط أن أعتمد ولو قليلا على أحاسيسك.. أنا أثق بها كثيرا وأنا في أمسّ الحاجة لها الآن.. أرجوك..
- أنا لا أريد أن أجعلك تتعلّقين بحبال الأمل الكاذب.. حبال ذائبة ستنقطع يوما وترميك في حفرة لا قرار لها.. حفرة النّدم..
- لا بأس.. أريد التّعلّق بهذه الحبال والسّقوط في هذه الحفرة..
- حسنا.. ما رأيك لو قطعنا الشّكّ باليقين؟
- ماذا تقصدين؟
- سنبحث عن جوزيف ربّما كان قد غادر البيت قبل وقوعه.. إن وجدناه كان حيّا وإن لم نجده..

- كان حيّا كذلك..
عندها طُرِق الباب وبرز من ورائه رجل غريب..
- هل تسمحين لي يا سيّدتي؟
- من أنت؟
- أنا الدّكتور.. استدعاني السّيّد داود للاطمئنان على حالة زوجته..
- تفضّل.. هذه هي أنجيل زوجة داود..
وغادرت أليس الغرفة واتّجهت نحو داود تعاتبه:
- ما كان عليكَ أن تستدعي الدّكتور.. لو سألتني لقلت لكَ أنّ صحّتها أفضل من صحّتي.. أبشر يا داود.. زوجتك باتت قادرة على تحمّل الصّدمات..
- تزفّين لي بشرى.. وأمّك متوفّية وابني مفقود؟
- معكَ حقّ.. أنا آسفة.. لكنّني أحاول فقط أن أتناسى ما حصل.. لماذا تصرّ أنت دائما على تنكيرنا بما نحاول نسيانه؟
- لأنّ هناك أشياء لا يمكن أن تنسى.. الانتفاضة هي سبب ما نحن فيه..
- اصمت.. جورج يسمعك..
فعلا.. كان جورج ينصت بكلّ جوارحه لما كان والده يقوله عن المصائب الّتي تسبّب فيها العرب كما كان داود ينعتهم وهو يقلّص قسمات وجهه بازدراء واضح واشمئزاز لا حدّ له.. كانت أليس تسعى بكلّ جهدها أن تبعد الأطفال عن تلك المسائل لئلاّ يكبروا وتكبر معهم عقدة الكراهيّة والضّغينة.. لكي تحافظ على براءتهم وتعلّمهم الفضيلة وحبّ الغير وتنشئهم على فعل الخير ونبذ العنف والقسوة.. نجحت في زرع هذه القيم في قلب ابنتها آلين لكنّها لم تنجح في ذلك مع جورج الّذي كانت نفسيّته أرضيّة ممهّدة لقبول كلّ أنواع الشّرور فضلا عن أنّه ورث جزءا كبيرا من شخصيّة والده النّافرة المزدرية وتعلّم منه كلّ ما يمتّ للعِداء بصِلَة من قريب أو من بعيد..

وبينما كانت أليس واقفة تتحادث مع زوج أختها إذ بالدّكتور يغادر غرفة أنجيل وعلى وجهه شبه ابتسامة فهرع إليه داود وهو يقول:

- خيرا يا دكتور..

- الحقيقة.. أعرف أنّ ظروفكم غير مناسبة.. لكن ربّما كانت فرصة لتعوّضوا بعض الأحزان بالأفراح..

- تكلّم يا دكتور..

- اطمئنّ يا سيّد داود.. زوجتك حامل..

لم يكن داود منتظرا الخبر الّذي زفّه الطّبيب.. لم يكن يعرف أ يفرح للمولد القادم أم يحزن لغياب ولده.. كتم حيرته وهرول نحو زوجته..

- هل علمتِ يا عزيزتي بالنّبإ السّعيد؟

- لن أفرح قبل أن أجد ولدي..

- وإن لم نجده..

- يكون قدرا وعلينا القبول به.. لكن لا بدّ من البحث عنه وأنا واثقة من أنّنا سنجده..

كلّ هذا وآلين لا تفهم ما يدور حولها بالضّبط.. كانت تسأل أمّها كلّ ليلة قبل أن تنام عن جوزيف.. وكانت أليس تحاول أن تصرف نظرها عن الموضوع.. لكنّ آلين وبفضل ذكائها كانت تكرّر السّؤال بإلحاح.. وعندما تضيق أليس بذلك ذرعا تقول لها:

- مع ماما ماري في بيتنا يا عزيزتي.. سأجلبه لكِ صباحا..

كانت تقول لها كلّ ليلة نفس الكلام.. وتنام الفتاة الصّغيرة على ذلك الأمل وتستيقظ لتتبيّن أنّ وعود أمّها كاذبة..

ومرّت الأيّام.. وتعب الرّجلان من البحث.. وعيل صبر أفراد العائلة.. وتسرّب اليأس من وجود الطّفل على قيد الحياة إلى نفوسهم.. وأدركوا أنّهم يركضون خلف وهم..

ومرّت الأسابيع والشّهور ولم يعثروا للطّفل على أثر.. وأيقنوا بموته إلاّ أمّه.. كانت تُظهر للجميع رضاءها بقدرها

واستسلامها لمصيرها لكنّها كانت في الحقيقة تتعذّب في كلّ يوم يمرّ بدون أن تراه ألف مرّة.. ولو آمنت كما آمن الآخرون بموته لما عاشت طوال حياتها تحلم باليوم الّذي يطلّ فيه عليها.. ولما أفنت عمرها في انتظار أمل كاذب.. وإن صدق فهو بعيد المنال.. الأمل في أن يكون ابنها في عداد الأحياء.. وطوال فترة حملها كانت تمنّي النّفس بإنجاب ولد ينسيها ولو قليلا مرارة فراق جوزيف حتّى أنّها قالت مرّة لزوجها:

- ترى هل سأنجب ولدا أم بنتا يا داود؟
- لنا ولد.. أحبّذ أن تنجب هذه المرّة بنتا..
- لنا ولد؟
- أ نسيت جورج؟
- أنت الّذي نسيت جوزيف..
- وما علاقة جوزيف بالأمر؟
- أنا أتمنّى أن أنجب ولدا يعوّضني عن جوزيف..

لم تكن المسكينة تحبّ جورج كثيرا.. كانت تحبّ جوزيف أكثر.. ولعلّ تأثير غياب الابن الصّغير في نفسها أثّر أكثر في علاقتها بجورج إذ كانت تحسّ بقلب الأمّ في عيني جورج فرحا بذهاب أخيه ربّما بلا رجعة.. فرحا بانزياح ثقل كبير كان يطبق على صدره ويكتم أنفاسه.. ليس فرحا بمعنى البهجة والسّرور بل نوعا من الرّاحة الّتي كان يتمنّاها حتّى يستحوذ على كلّ شيء.. وعلى أهمّ شيء.. قلب آلين..

وفي إحدى اللّيالي، جلست أليس حذو أختها أنجيل وقالت لها:

- هل تذكرين يا أختاه ذلك الحلم الّذي مرّت عليه أكثر من ثلاث سنوات؟ يوم أتيت بعده تطلبين منّي يد آلين لابنكِ جوزيف؟

- أذكره وكأنّني رأيته البارحة..
- هل تذكرين ما قاله ذلك الشّبح الأبيض ليلتها؟
- قال لي "ابنكِ موعود لابنة أختك.."
- ويومها ظنّناه يتحدّث عن جوزيف..

- ماذا تقصدين؟
- لقد طال غياب جوزيف.. وأخشى..
- لا تُكمِلي يا أليس.. قد فهمت.. أنت تظنّينه يقصد جورج؟
- بالضّبط..

عندها ندّت عن أنجيل ابتسامة ساخرة لا مبالية تخفي تحتها سلسلة من الآلام لا آخر لها ثمّ قالت مشيحة بوجهها عن أختها:

- لا يهمّني الآن شيء.. قد ذهب أغلى ما أملك في الدّنيا.. افعلوا ما تريدون..

عندها عُوِّض جوزيف بجورج.. والفتاة المسكينة لا تدري شيئا ممّا يدور حولها.. ومرّت بعدها أيّام قليلة وتمّت الولادة وكانت المولودة فتاة أصرّت الأمّ أن تسمّيها "جوزفين" على أمل أن تكون مثل أخيها جوزيف خَلْقا وخُلُقا.. ومرّ شهران على الولادة.. وتأزّمت الأحوال أكثر.. كسدت تجارة إسحاق وحطّمت الانتفاضة دكّان داود ولم تجد العائلة بدّا من الرّحيل عن ذلك البلد الّذي عاد ليسلب منها أغلى الأشياء بعد أن منحها في البداية كلّ شيء.. ذلك البلد الّذي مات فيه الجدّ جاد وضاع فيه الابن جوزيف وتهدّم فيه البيت الكبير وماتت تحت أنقاض البيت الجدّة ماري وأُقْفِلت فيه أبواب الرّزق جميعها..

أخذ الجميع أدباشهم ورحلوا عائدين إلى البلد الأوّل الّذي وُلِدت فيه المرأتان.. إلى مصر.. علّهم يعوّضون هناك كلّ ما فاتهم.. وفي طريق العودة.. كانت آلين تسير قليلا ثمّ تتوقّف وراءها وكأنّها تركت شيئا ثمينا نسيت أخذه معها.. وفي لحظة ما توقّفت وتسمّرت في مكانها وقالت لأمّها في غضب ممزوج بنبرة باكية:

- أنتِ كاذبة يا أمّي..
- عيب يا ابنتي.. أنا أمّك..
- لقد قُلتِ لي أنّكِ ستجلبين لي جو لألعب معه.. وعدتني ألف مرّة بهذا ولم تنفّذي وعدك..

- لكنّني قلتُ لكِ بعدها أنّنا لن نرى جوزيف مرّة أخرى..
- أنتم أشرار.. أنا أكرهكم.. ستتركون جو لوحده هنا مع جدّتي وتأخذونني بعيدا عنه إلى مكان لا أعرفه..
- جوزيف ليس مع جدّتك..

وعندها تسمّرت الفتاة في مكانها واغرورقت عيناها بالدّموع:

- إذن فكلام جورج صحيح..
- ماذا قال لكِ جورج؟
- قال لي أنّه.. أنّه مات وأنّني لن أراه ثانية..

عندها نظرت أليس إلى جورج الّذي كان واقفا على بُعد أمتار منهما نظرة عتاب وتأنيب وغيظ.. كانت الصّدمة شديدة على الفتاة الصّغيرة الّتي ظلّت مدّة طويلة كخالتها تنتظر قدوم طيف لا وجود له.. فكانت طوال الرّحلة واجمة غير مصدّقة لما يحدث.. لحظتها فقط فهمت ما يدور حولها..

ونشأت آلين في القاهرة وكبُر جورج وكبُرت معه عقده.. وصار يفكّر جدّيّا في الارتباط بآلين الّتي كانت في كلّ مرّة تتهرّب من الموضوع.. وكانت في آن واحد تحسّ أنّ شيئا ما يشدّها إلى أحد غيره.. كانت وهي تناهز سنّ الخامسة عشر قد نسيت ما كان يربطها أثناء عهد الطّفولة بجوزيف.. لكنّها رغم ذلك قدرت على تكوين صورة رائعة الجمال لفارس الأحلام الّذي تنتظره وكانت تتخيّله شبيها بجوزيف الشّاب.. صورة استمدّتها من خيالات خالتها الّتي كانت تحلم بابنها وبعودته حتّى آخر نفس في صدرها.. صورة بعيدة كلّ البعد عن ملامح جورج وهيأته وشخصيّته..

وعندما بلغت آلين الخامسة عشر من عمرها حنّ الرّجلان إلى بلدهما.. وخاصّة منهما إسحاق الّذي كان يقول دائما لداود «إنّها أرضي الّتي ولدت بها وتربّيت وقد وافقت أليس وأختها على المجيء إلى مصر ويجب أن ينزلا عند طلبنا هذه المرّة

ويوافقا كذلك على رجوعنا إلى أرضنا.. إنّها أرض الميعاد وأنا لا أريد أن أنهي حياتي وأدفن إلاّ في تربتها»..

وأمام إلحاحه عزم الجميع على العودة.. وفي الحقيقة كان يمكن لأنجيل أن ترفض ذلك إلاّ أنّها وافقت إسحاق ونزلت عند رغبته إحياء منها لأمل دفنه سفرها إلى مصر.. الأمل في أن تجد ابنها.. لا صغيرا كما تركته بل شابّا كما صوّرته دائما مخيّلتها..»

وهنا، سكتت آلين وأطرقت وقد علت على وجهها ملامح تنمّ عن خوف وبشر في آن واحد وعندها قطّب أحمد حاجبيه ثمّ قال:

- وبعد..
- ماذا تريد أكثر ممّا قلته؟ أ لم تفهم بعد؟
- أنا لم أفهم علاقتي بالقصّة الّتي رويتها..
- حسنا..

قالت هذه العبارة ودسّت يدها في جيب سترتها وأخرجت قلادة.. ثمّ أضافت مقدّمة له إيّاها «والآن هل فهمت؟» أمسك أحمد القلادة.. قلّبها في يده فوجدها في شكل نصف قلب كُتِب على وجهه حرف "ج" بالانكليزيّة وعلى ظهره دُوّن تاريخ 11 نوفمبر 1984 فداخلته الرّيبة وانتابه القلق وقال لآلين بنبرة متوسّلة:

- أرجوك.. أنا لم أفهم شيئا.. فسّري لي ما تعنينه من وراء كلّ هذا.. قلادتك تبدو لي النّصف المكمّل لقلادتي والتّاريخ المدوّن عليها هو نفس تاريخ ولادتي.. لكنّ الحرف مختلف و.. أكاد أجنّ..

- الأمر بسيط.. عندما وُلِدت آلين وجوزيف اللّذين حدّثتك عنهما، وبعد الحلم الّذي رأته أنجيل.. صمّمت المرأة على أن تربط بين القلبين بشيء محسوس.. صنعت لكلّ واحد منهما قلادة.. حفرت على القلادتين تاريخ ميلادهما وأوّل حرفين من اسميهما.. قدّمت تلك الّتي كتب عليها حرف "ج"

إلى ابنة أختها وعلّقت الثّانية على صدر ابنها.. حتّى لا ينسى أحدهما الآخر في يوم من الأيّام..

- هل تقصدين أنّني..

- أنت "جوزيف".. أجل أنت جوزيف وهذه القلادة الّتي أهدتها لك والدتك تحمل في الأصل الحرف الأوّل من اسمي.. وهاهو ذا نصفها الثّاني بين يديك..

* * *

VI

سمعت زينب صوت باب الدّار يقفل فهرعت إلى ابنها وهي تمسح دموعها.. دخل أحمد مطأطأ الرّأس محمرّ العينين يبدو عليه الضّيق والحزن والألم.. تهالك على الكرسيّ الّذي وجده أمامه ووضع رأسه بين كفّيه ولم ينبس ببنت شفة حتّى أنّه لم يسلّم على أمّه كما اعتاد أن يفعل كلّ مرّة حينما يعود إلى المنزل.. ولم تستغرب هي هذا الأمر بل بالعكس..

جلست على البساط على ركبتيها ووضعت يديها على ركبتيه وهي تقول له مواسية:

- لا بأس يا ولدي.. كلّنا حزانى عليه.. عندما علمتُ بالخبر أردتُ أن أنبئك لكنّني لم أعرف لك طريقا.. ثمّ إنّني رجّحت أنّك ستعلم بالأمر من النّاس.. قضاء أراده الله ويجب أن نرضى به.. ونحن لا نملك إلاّ أن ندعو للرّجل بالرّحمة والمغفرة..

رفع الفتى رأسه وقطّب حاجبيه ونظر إلى أمّه في ذهول:

- عمّ تتحدّثين؟

- أ لم يصلكَ نبأ وفاة الزّعيم؟

نزل الخبر على أحمد نزول الصّاعقة.. كان متأمّلا ولو قليلا أن يعيش هذا القائد حتّى ينتصر على أعدائه وأعداء بلده.. حتّى يرى بعينيه حلم الاستقلال يتحقّق أمامه.. حتّى يشهد لحظة الفرح القادمة لا محالة.. لم يكن يقدّر أنّ الرّجل الّذي واجه جيشا بحاله بصبر وجلَد يعجز عن مواجهة أزمته وتنتهي حربه مع الموت بالفشل.. ولم يكن ما يحزن أحمد موت القائد في حدّ ذاته إذ كان مؤمنا أنّ انتصار الموت عليه في النّهاية لم يُخمد انتصاره على الحياة الّتي عاشها بين أبناء بلده يحارب الغُزاة ويزرع كلّ يوم في قلب كلّ شبل تحدّي الأسد وقوّته.. ويغرس في كلّ شبر من أرض البلد بذرة حماس وحبّ يسقيها بدمه وعرقه.. تراكمت كلّ الأحزان على قلب أحمد دفعة واحدة حتّى باتت عبئا ثقيلا.. كان نبأ وفاة الزّعيم القطرة الّتي

أفاضت كأس صبره على مفاجآت الحياة المريرة.. مفاجأة موت آمنة وعبد الله والحقائق الّتي واجهته بها آلين منذ سويعات..

تشوّش تفكيره ولم يعد يدر ما يفعل.. أحسّ بصعوبة الحياة وسوادها.. رأى ظلمة قاتمة تجتاح المكان.. أحسّ بغربة فضيعة رغم وجود أمّه بجانبه.. أحسّ بالبرد.. ثمّ اصفرّ وجهه وبعدها انهمرت الدّموع على خدّيه غزيرة..

أخذت أمّه تواسيه وتصبّره وهي تقول في نبرة متفائلة غطّت القليل من المعاناة الّتي كان الكلّ يستشعرها:

- لا بأس يا ولدي.. كن على يقين بأنّ قائدنا لم يمت.. سيظلّ حيّا في قلب كلّ وطنيّ أحبّ بلده أكثر من نفسه.. سيظلّ حيّا في قلبي وقلبك كما هي حيّة آمنة وكما هو حيّ عبد الله وكما هو حيّ كلّ شهيد أفنى عمره ليحيا بلده.. لا يحقّ لكَ أن تذرف دموع الحزن على من فارقنا إلى الجنّة بإذن الله.. يجب أن نضحك ونزغرد لأنّ أبا عمّار رحل مطمئنّا إذ ترك وراءه رجالا أشدّاء مثلك يرعون الوطن من بعده.. ذاك الأسد ترك أشبالا ورثوا عنه العزم والإقدام وحبّ الأرض والذّود عن العرض..

كان أحمد ينظر إلى أمّه مستمعا لما تقوله وفي آن واحد كان ينصت لصوت عقله الّذي ما انفكّ ينبش في الكلام الّذي قالته آلين.. ثمّ أخذ يتساءل: «هل يحقّ لي أن أحزن على موت قائد لم يكن في الأصل قائدي؟ هل صحيح أنّي من بين الرّجال الأشدّاء الّذين خلّفهم القائد وراءه؟ هل أستحقّ حقّا أن أكون من بين المناضلين الّذين عملوا كلّ جهدهم حتّى تتحرّر البلاد من قيود الاستعمار والحال أنّني في الأصل أنتمي إلى فئة الأعداء؟»

دارت كلّ هذه الخواطر في ذهن أحمد لكنّه طردها باحتمال ضئيل هو أن تكون آلين مخطئة في تصوّراتها ورجّح مع عقله أنّ الإجابة الصّحيحة لن تقدّمها له إلاّ أمّه.. هذه الإجابة هي الشّيء الوحيد الّذي سيشفي غليله.. فإمّا أن يرسي

على برّ الأمان إن صحّ ذلك الاحتمال الضّئيل وإمّا أن يجد نفسه في مفترق طرق إن صحّت تصوّرات آلين..

* * *

وبدون مقدّمات، وضع عينيه في عيني زينب وقال لها بنبرة حازمة:

- هل أنا ابنكِ حقّا يا أمّي؟

وهنا دقّ قلب زينب دقّات عنيفة وارتبكت ملامحها وارتعدت مفاصلها وارتعشت نبرة صوتها وتلعثم لسانها وهي تردّ مصطنعة الابتسام واللاّمبالاة:

- هـ.. هل تمزح؟ ما.. ما هذا السّؤال يا أحمد؟
- أجيبيني عنه يا أمّي أرجوك..
- ط.. طبعا يا ولدي..
- قسمات وجهك تقول غير هذا..
- و.. وماذا سـ.. سيكون غير هذا؟
- أنت مؤمنة وصادقة يا أمّاه.. والصّادق لا يعرف الكذب أبدا.. لذا عندما يحاول الكذب تبوء كلّ محاولاته بالفشل ويفتضح أمره..
- هـ.. هل أنا كاذبة؟ منذ متى تـ.. تكلّمني..
- أنتِ تكذبين لأنّك خائفة عليّ.. خائفة أن أفلت من بين يديكِ وأذهب بلا رجعة..

قال هذه الكلمة ونهض من فوره عن الكرسيّ.. لم تُطق المسكينة ما جال بخاطرها.. كانت تظنّه يهدّدها بأن يغادر البيت وألاّ تراه ثانية إن لم تقل الحقيقة.. فسجدت على الأرض وأمسكت برجله وهي تقول وصوت نحيبها يمزّق الفؤاد:

- لا.. لا.. أرجوك.. أرجوك يا ولدي.. لا ترحل.. أنا لا أملك غيرك في الدّنيا.. لو رحلت سينفطر قلبي عليك.. لو تركتني سأموت.. سأموت.. ارحمني يا أحمد.. ارحم أمّا سهرت لأجلك اللّيالي وخافت عليك أكثر من نفسها.. لا تذهب.. لا تذهب كما فعلت أختك من قبلك.. أرجوك.. أرجوك.. أنا خائفة.. أنا خائفة..

كانت المسكينة تلفظ تلك العبارات وهي تكاد تلفظ بعدها أنفاسها.. كانت ترتجف.. تصبّب العرق على جبينها وانهمرت الدّموع سيولا على خدّيها.. جزع أحمد لرؤية زينب على تلك الحالة فهرع يسندها حتّى استوت واقفة ثمّ حملها حتّى أوصلها إلى غرفتها فوضعها على سريرها وجلس بجانبها يهدّأ من روعها:

- لا تخافي يا أمّي.. لن أتركك.. لن أبتعد عنكِ مهما حدث.. الآن تأكّدت أنّكِ أمّي.. وأنّني ابن بطنك.. أنا آسف لِما سبّبته لكِ من عناء.. لن أنطق بهذه الحماقات مرّة أخرى.. أعدك..

لكنّ زينب الّتي كانت ما تزال تلهج وما يزال وجهها مصفرّا لم ترض بأن يبقى ولدها على جهله بالحقيقة.. لم ترض بأن تظهر أمامه في يوم ما في صورة الكاذبة حتّى وإن كان قولها للحقّ على حساب أغلى شيء لها في الدّنيا.. بل على حساب أملها الوحيد الّذي بقيت به الحياة جميلة.. على حساب أن يبقى ولدها بين يديها وألاّ يتركها.. أغمضت المرأة عينيها وحاولت السّيطرة على تلاحق أنفاسها ثمّ فتحتهما قليلا وقالت بانكسار:

- كلاّ يا ولدي.. أنا لا أقبل أن تعيش معي حياة مبنيّة على الكذب حتّى وإن كانت الكذبة في صالح الجميع.. حتّى وإن أدّت إلى بقائك في حضني وإلى مضيّ الحياة في أبهى حللها.. حتّى وإن أدّت الحقيقة إلى تغيير جذريّ في مسار مستقبلك.. لا بدّ من قولها.. هكذا علّمنا الإسلام.. أ ليس كذلك يا أحمد؟

صمت أحمد في ذهول وأردفت هي:

- نعم يا أحمد.. أنا أمّك الّتي ربّتك منذ كان عمرك ثلاث سنوات تقريبا..

- أ تقصدين..؟

- دعني أكمل حديثي يا بنيّ.. لا تقاطعني أرجوك.. كنتُ أطلب من الله في كلّ صلاة أن يرزقني بابن يملأ عليّ الدّنيا

أنسا وسعادة فرزقني بك ثمّ بآمنة.. وشاءت الأقدار أن يختار ابنتي الّتي حملتها بطني لتنتقل إلى جواره ويترك الطّفل الّذي لم أنجبه لكنّني والله العالم أعتبره ابني البكر..

- وكيف لم يعلمني أحد بالأمر؟ سبعة عشر عاما كاملة.. الخالة عائشة.. العمّ إبراهيم.. لابدّ أنّهما يعلمان هذا السرّ..

- أجل.. كلّ الحيّ يعلم بالأمر ولم يخبرك أحد.. هذا سرّ من أسرار صمود شعبنا وقوّته..

- أنت الآن ولا شكّ تتألّمين لأنّي علمت بالحقيقة الّتي حاولت إخفاءها عنّي طوال هذه الأعوام لكنّك ستتألّمين أكثر لو علمت أنّك أنت من كشف لي هذه الحقيقة من دون قصد منك.. وستتألّمين أكثر وأكثر لو علمت من أكون في الأصل..

- عندما وجدك المرحوم عبد السّلام تائها.. وجلبك إلى بيتنا.. وانتظرنا قدوم أهلك ولم يأت منهم أحد رجّحنا أنّهم ماتوا تحت أنقاض أحد المنازل الّتي وقعت آنذاك بسبب الانتفاضة.. كانت بيوت أهل البلد تتساقط في تلك الفترة و..

- ما رجّحتماه كان صحيحا.. جدّتي ماتت يومها تحت أنقاض منزلنا.. لكنّ ذلك المنزل لم يكن على ملك أحد أبناء البلد.. بل على ملك.. على ملك الأعداء..

- أنتَ..

- أجل.. أنا منهم.. أنا ابن عائلة داود.. عائلة تنتمي إلى تلك الجيوش الّتي قتلت.. الّتي قتلت.. لا أدري ما أقول.. هل أقول أنّها قتلت أبناء بلدي؟ أيّ بلد؟ أيّ بلد؟

- أنا.. لا أصدّق..

- بل صدّقي.. أنت ربّيت ابن أعدائك الّذين قتلوا أفراد عائلتكِ.. وقتلوا ابنتكِ..

- لكنّك لست منهم يا أحمد.. أنت نشأت معنا.. هنا..

- لكنّ أهلي هناك..

ثمّ ابتسم في استهزاء ويأس واضحين:

- وهذه القلادة الّتي أهديتنيها بمناسبة عيد ميلادي السّعيد.. كانت الأداة الّتي كشفت كلّ شيء.. وجدت نصفها الثّاني مع آلين.. هل تعرفين من تكون آلين؟

- خطيبتكَ..

- بل ابنة خالتي..

ظلّت الأمّ المسكينة تنظر إلى ابنها في ذهول وقلبها يتقبّل الصّدمات الواحدة تلو الأخرى.. كانت تحملق في اندهاشٍ وصمتِ العاجز عن إدراك كلّ تلك الحقائق الّتي برزت فجأة وتراكمت.. كانت تحدّق في ابنها وكأنّها تشهد وراءه سقوط بنيان كامل سهرت على تشييده عقدين من الزّمن واتّضح لها في النّهاية أنّه قصر من الرّمال صمد وصمد ثمّ اجتثّته من جذوره موجة واحدة من أمواج بحر هائج.. كان كلّ شيء على ما يُرام طوال فترة ركون تلك القلادة في قعر صندوق مقفل بالخزانة.. وبمجرّد ظهورها انكشف كلّ شيء.. «يوم بحثتُ عنها ولم أجدها.. كدتُ أجنّ.. ليتني لم أجدها».

كانت هذه الأفكار تدور بذهن الأمّ المسكينة وهي تستمع لابنها -وهو يسرد عليها الحكاية الّتي سمعها من آلين- بأذن صمّاء.. لا شكّ أنّه بعد أن عرف الحقيقة سيتركها ليذهب إلى أهله ويعيش بينهم.. سيتركها إلى الأبد.. وتعود هي كما كانت وحيدة وكأنّ العمر دائرة تبعت مسارها حتّى عادت بها إلى نقطة البداية..

طأطأ أحمد رأسه وقال خاتما حكايته:

- وهكذا أوصيتها ألاّ تعلم أحدا حتّى أستجلي حقيقة الأمر..

- وها أنتَ ذا قد تأكّدت من صدقها..

- ماذا تقصدين؟

- ماذا قرّرت؟ هل ستظلّ معي أم ستذهب إليهم؟

كانت زينب تتحدّث في لهجة عنيفة وكأنّها تستجوبه.. فردّ هو مهمهما:

- الأمر يحتاج إلى تفكير قبل أن أقرّر..

وعندها ابتسمت الأمّ ابتسامة اختزلت معاني الحسرة واليقين..

- كنتُ متأكّدة أنّك ستخذلني.. لكنّني تأمّلت قليلا أن تجيبني بلا تفكير.. أن تقول لي بأنّك من المستحيل أن تتركني.. لا لشيء إلاّ لأنّني أمّك.. مجرّد تفكيرك في الأمر يجعلني أشكّ في حبّك لي وأتيقّن من أنّني كنتُ مخدوعة حينما توهّمت أنّك ستتمسّك بي حتّى لو علمت أنّني لا أمتّ لك بصلة.. حينما صوّرت لي نفسي أنّك ابني كما هي آمنة ابنتي.. حينما حلمتُ وصدّقت حلمي.. وكذبتُ وصدّقت كذبتي.. وأيقنت أن لن يفرّقنا يوما غير الموت وحتّى الموت حاولتُ أن أبعدك عنه قدر الإمكان حتّى لا يكون سبب فراقنا.. ليتكَ متّ.. كان موتكَ أهون عليّ من هذه اللّحظة الّتي تطعنني فيها بحدّ خنجر مسنون وأنت تقول لي أنّك ستفكّر ثمّ تقرّر من تختار فينا.. أنا أو عائلتك الحقيقيّة.. وأنت تضعني على قدم المساواة مع أناس لم تكن تعرفهم ولا يعرفونك.. لمجرّد أنّك ابنهم.. في الحقيقة..

* * *

فتحت آلين باب الدّار ودخلت شاردة الفكر ممزّقة الفؤاد.. كانت مسرورة تارة لإيجادها أخيرا لابن خالتها.. وقلقة تارة أخرى من ردّة الفعل الّتي أبداها أحمد لمّا علم بالحقيقة.. لماذا طلب يا ترى إبقاء الأمر سرّا رغم أنّه لم يكن في حاجة إلى التّأكّد أمام تلك الحجّة الدّامغة الّتي واجهته بها من صحّة الحكاية؟ كانت متّجهة صوب غرفتها مطأطئة رأسها وهي تتحسّس بيدها اليمنى موضع القلادة في جيب سروالها.. كانت المسكينة تسير دون أن ترى الواقف في البهو منتظرا وصولها على أحرّ من الجمر.. عندما شارفت على الوصول إلى غرفتها فزعت لوجود جسم هائل يسدّ المدخل بقامته الطّويلة والعريضة.. ولم تكن إلاّ قامة جورج وعلى وجهه بانت ملامح الشّكّ والغيرة والشّر المستطير..

- هل أفزعكِ وجودي؟
- ليس من عادتكَ الـ.. الوقوف في هذا المكان..
- قولي أنّه ليس من عادتي الوصول في هذا الوقت..
- ماذا تريد الآن؟
- أريد أن أعرف أين كنتِ؟
- كـ.. كنتُ أشتري خضرا..
- وأين هي الخضر الّتي اشتريت؟
- لم أجد ما ذهبت لأجله فعدتُ أدراجي..
- جوزفين قالت لي أنّكِ خرجت منذ ساعتين.. كلّ هذا الوقت عند بائع الخضر ولم تجدي ما ذهبت لأجله؟ هل كنتِ ستمكثين اليوم كلّه عنده لو وجدتِ ضالّتكِ؟

- بعد بائع الخضر.. مررت لألقي نظرة علّني أجد فستانا أشتريه.. ثمّ ما الّذي يهمّك من أمري؟ من طلب منك التّحقيق معي؟

عندها بدأت الشّرارة الأولى من ثورة جورج تشتعل وقال لها وكأنّه يجمع بعض شتات كبريائه الضّائع:

- أنا هنا المسؤول عنكِ.. هل نسيت أنّكِ خطيبتي وأنّنا سنتزوّج قريبا؟

كان يحاول دائما تذكيرها بما تحاول هي جهدها نسيانه.. كان لا يفتأ كلّ لحظة يكرّر على مسامعها تلك العبارة وكأنّه كان يستشعر خطرا ما يهدّد علاقتهما.. كان دائما يخاف أن تفلت من بين يديه.. وكلّما نطق بتلك الجملة اندلع بينهما شجار كبير ينقطع بعده كلّ منهما عن الحديث مع الآخر.. والحقيقة أنّ آلين هي الّتي تفتعل دائما الخصام حتّى ترتاح بضع سويعات من مضايقاته.. لكنّها في تلك اللّحظة بالذّات خيّرت تجنّبه إذ أنّ الموقف لم يكن أبدا في صالحها وأيقنت أنّها لو عاندته في ذلك الوقت فإنّه سيفقد حتما ثقته بها وأنّه لن يتوانى ربّما عن مراقبتها وتتبّع حركاتها.. لذلك تصنّعت الحزن والبكاء وعندها قال هو بعنف..

- لماذا تبكين؟ أنتِ دائما تخطئين ثمّ..

- يبدو أنّكَ نسيت أنّ اليوم عيد ميلادي.. أ لم يكفك أنّك لم تجلب لي هديّة؟ تحاول كذلك أن تكدّر صفو يومي الجميل.. وعوض أن تجلب لي المرطّبات والورد تفتح لي محضرا وتستجوبني وكأنّني مجرمة ثمّ تصرخ في وجهي؟

وعندها بدت على جورج آيات الأسف والنّدم، انشرحت بعدها أساريره وابتسم في حنان واضعا يده على كتفها وهو يقول معتذرا:

- أنا آسف يا عزيزتي.. بالعكس.. أنا عدت اليوم من الورشة مبكّرا خصّيصا لأحتفل معكِ بهذا العيد السّعيد.. اشتريت المرطّبات والهديّة.. وجُنّ جنوني حينما لم أجدكِ هنا.. لكن هوّني عليكِ.. لا تبكي.. أرجوكِ.. امسحي دموعك الغالية..

- حسنا إذن.. عُد أنت إلى ورشتك.. وسأجهّز أنا مع جوزفين كلّ شيء.. سننتظر عودة والدي من الشّغل لنحتفل سويّة.. ما رأيك؟

- أمركِ يا أميرتي..

وعندما غادر جورج البيت قالت جوزفين:

- كيف استطعت الخروج من المأزق؟

- متى عاد هو من الورشة؟ تبّا لحظّي السّيء..

- أعذريني يا آلين.. اضطُررت أن أقول له أنّكِ خرجت منذ ساعتين لأنّه مكث هنا ساعة كاملة بانتظارك..

- لو علِم أنّني غائبة عن البيت منذ الصّباح لمزّقني إربا.. أنا لا أعرف إلى الآن كيف قدرت على إقناعه ببراءتي..

- أخي طيّب.. لو لم يكن كذلك لما انطلت عليه ألاعيبكِ..

- من يراه للمرّة الأولى ينخدع فيه لكنّه في الحقيقة..

ثمّ استدركت..

- دعينا من جورج الآن.. ضعي المرطّبات الّتي جلبها في الثّلاّجة ثمّ الحقي بي إلى غرفتي..

انصرفت الفتاة لتنفّذ ما طلبته منها ابنة خالتها.. أمّا آلين فقد دفعت بيدها باب الغرفة ودخلت وما إن وطأت قدمها

الأرضيّة حتّى تسمّرت في موقفها.. لمحت على فراشها صندوقا كبير الحجم مغلّفا بغلاف هديّة.. دنت منه فوجدت عليه ورقة صغيرة.. جذبتها من تحت الشّريط الأبيض الّذي رُبِط به الصّندوق وقرأت ما كُتِب عليها "لا تفتحي الهديّة حتّى يحين وقت الاحتفال" وقرأت في الأسفل الإمضاء "حبيبك جورج".. ابتسمت الفتاة في سخريّة وهي تقول في نفسها «ومن قال أنّي أريد فتحها؟ ثمّ من قال أنّك حبيبي؟» أعادت الورقة إلى مكانها وجلست على الفراش وعندها دخلت جوزفين وأغلقت الباب قائلة:

- أ لن تبدئي في تجهيز نفسك؟ تعالي سأساعدك في تصفيف شعرك..

- ولِمَ كلّ هذا؟

- عجبا.. أ لن تحتفلي اليوم بعيد ميلادك العشرين؟

- وماذا في الأمر؟ هل سنقيم عرسا؟

- كلاّ ولكن.. يجب أن تعتني بنفسكِ قليلا يا عزيزتي.. إنّها مناسبة جيّدة حتّى تفرحي وتنسي كلّ معاناة..

- أنسى؟ لن تصدّقيني لو قلتُ لكِ أنّني اليوم أحسّ بكلّ هموم الدّنيا واقعة على رأسي وأعبائها تثقل كاهلي..

- ولِم تقولين هذا؟

- هل ترين هذا الصّندوق؟

- لقد رأيته بيد أخي منذ قليل..

- أحسّ أنّ بداخله سرّا كبيرا.. بل كارثة..

- ماذا تقصدين؟

- لا أعرف.. ولكنّ قدوم جورج اليوم مبكّرا على غير عادته وحديثه معي.. كلّ شيء يوحي بأنّ حدثا خطيرا يتربّص بنا وبي تحديدا..

- صار كلامكِ ككلام خالتي أليس.. دعي هذا التّشاؤم جانبا وهيّا بنا نجهّز أنفسنا قبل أن يأتي الجميع..

وقامت آلين على مضض وجلست على كرسيّ أمام المرآة حتّى تسرّح لها جوزفين شعرها.. كانت تنظر إلى وجهها في

المرآة وكأنّها ترى أمامها جوزيف.. كانت تفكّر في كلّ ما دار بينهما يومها من حوار.. كانت في داخلها سعيدة بإيجادها أخيرا نصفها الثّاني الّذي سيشاركها حياتها.. لكنّ شيئا ما في قلبها كان ينغّص عليها فرحتها تلك.. كانت تستشعر حدوث أمر ما سيقلب سرورها حزنا وهناءها شقاء.. لم يكذب عليها قلبها يوما.. يوم أحسّت أنّ جوزيف قريب منها كان بالفعل قريبا منها.. وهي الآن تحسّ بقرب الخطر وتسمع رنين جرسه.. كانت هذه الخواطر تدور بذهن آلين لكنّها في آونة ما استبعدتها وأخذت تقول في نفسها وكأنّها تلهيها عن هذه الأفكار السّوداء «من كان يصدّق أنّ جوزيف هو ذات الشّابّ الّذي قابلته منذ أربع سنوات خلت وأنقذته من براثن اتّضح في النّهاية أنّها براثن أهله؟ من كان يصدّق أنّ جوزيف هو ذات الفتى الّذي أنقذني من شهور من بين أيدي مجموعة من الأطفال كان يحبّهم كثيرا ويرأف لهم وهو في الأصل عدوّهم؟ ترى هل سيرضى بأن يتزوّجني وينتقل للعيش معنا وقد تبيّن له أنّنا الآن أسرته وعشيرته؟ هل سيترك أمّه الّتي ربّته طوال عقدين من الزّمن ويرتمي في أحضان والده الّذي لا يعرفه بل نسيه و يئس من وجوده على قيد الحياة؟ هل سيترك دينه الّذي نشأ عليه ليعتنق دين جدوده وآبائه الأصليّين؟ هل سيتنكّر للبلد الّذي عاش طفولته وشبابه يسقي ترابه بعرق جبينه ويتمنّى كلّ يوم أن يموت شهيدا في سبيل عزّته ورفعته؟ وهل سيقف في صفوف من قتلوا أصدقاءه وأحبّاءه وحرموه أعزّ النّاس على قلبه؟»

كانت المسكينة جالسة شاردة الفكر.. عيناها تحملقان في المرآة ولا تريان شيئا محدّدا.. كانت تطرح على نفسها آلاف الأسئلة وتقف أمامها عاجزة عن الجواب.. لو أجابت عنها بالإثبات ستجد جوزيف بجانبها رهن إشارتها ينتظر موافقة أهلها حتّى ينضمّ إليهم ويضمّهما سقف واحد.. وإن أجابت بالنّفي فلن تجد أمامها غير الظّلام وستجد أحمد يطلب منها أن يأخذها بحصانه الطّيّار إلى عشّ الزّوجيّة.. لكنّ الحصان

مكسور الجناحين والعشّ هشّ لا يقيهما شرّ جورج ولا غدر الزّمان.. كانت آلين تأمل أن يختار جوزيف الحلّ الأوّل درءا لكلّ المخاطر وابتعادا عن كلّ الشّرور لكنّ طَلَبَهُ منها في النّهاية أن تكتم السّرّ لم يُطمئنها بل جعل قلقها يتضاعف وخوفها يشتدّ..

* * *

وأتى وقت الاحتفال بعيد الميلاد وتحلّق أفراد العائلة حول قالب الحلويّات.. غنّى الجميع وكان أكثرهم سعادة ونشوة جورج أمّا آلين فلم تبدُ عليها أيّة علامة من علامات الفرحة إذ كانت موقنة بأنّ فرح جورج يخفي لها بين طيّاته حزنا كبيرا.. قسّمت جوزفين القالب وقدّمت لكلّ فرد منابه.. أخذ كلّ قطعته إلاّ جورج وقف فقالت جوزفين:

- تعال يا أخي.. أ لن تأكل؟

فقال مخاطبا آلين:

- آلين! هاتي الهديّة من غرفتك..
- كلْ أوّلا ثمّ..
- لن أقدر على الصّبر أكثر..

عندها دخلت آلين غرفتها ثمّ خرجت ممسكة بين يديها الصّندوق الكبير.. فقال لها مبتسما تكاد الفرحة تنطق من عينيه:

- آمل يا آلين أن تكوني قد طبّقت ما كتبته لكِ على الورقة..

فأجابته برأسها مؤكّدة كلامه.. أخذ من بين يديها الصّندوق ووضعه على البساط وطلب من الفتاة أن تغمض عينيها.. أغمضت آلين عينيها وسمعت صوت فتح الصّندوق وصوت غلاف بلاستيكيّ وما هي إلاّ برهة حتّى قال لها:

- افتحي عينيك الآن..

فتحتهما فرأت أمامها فستانا أبيض جميلا.. فأردف هو قائلا:

- هل أعجبكِ؟ سيكون فستان زفافكِ.. ستلبسينه بعد أسبوع..

نظرت آلين إلى الحاضرين وأحسّت في تلك اللّحظة أنّ الكلّ كانوا يعرفون حقيقة ما كان بداخل العلبة.. أحسّت أنّها تعرّضت لمؤامرة دنيئة من أقرب النّاس إليها.. أحسّت أنّهم اتّفقوا على وضعها أمام الأمر الواقع.. أحسّت أنّها إزاء نوع بغيض من الخيانة لا يمكن لأحد أن يغفره.. أحسّت أنّ الّتي كانت تلمع في أعينهم ما كانت نظرات فرح وسرور بقدر ما كانت نظرات تشفٍّ وشماتة.. أحسّت نفسها كالفأر في المصيدة..

الآن فقط عرفَت مردّ الخوف الّذي كان ينتابها أمام الغموض الّذي اكتنف ذلك اليوم.. كانت تستشعر حدوث شيء كهذا لكنّها رغم ذلك تلقّت صدمة عنيفة لم تكن تنتظرها..

وفجأة أفاقت من دهشتها على صوت جورج يقول لها بنبرة لم تقدر آلين على تمييز نوعها.. ربّما كانت سعادة عارمة وربّما كانت إحساسا عظيما بالانتصار:

- أ لن تجرّبيه؟

عندها ألقت الفتاة على ابن خالتها نظرة بُغض واحتقار ويأس.. واندفعت راكضة إلى غرفتها تاركة وراءها رذاذ دموع لم تقدر على السّيطرة عليها.. نظر الجميع إلى بعضهم البعض فقالت أليس محاولة تدارك المسألة:

- إنّها دموع الفرح..

كان الكلّ يعلم بأنّ دموع آلين ما كانت إلاّ آخر تعبير منها عن معاناة وألم لا ينتهيان.. تعبير عن إحساس بوحدة وجدت نفسها فيها بعد أن رأت الجميع موافقين على ارتباطها بشخص لا تكنّ له أيّة مشاعر.. حين وجدت نفسها وحيدة في مواجهة تيّار سيجرف معه سعادتها وهناءها مع حبيب قلبها.. كان الكلّ يعلم سرّ بكاء الفتاة وكان جورج أكثر العالمين بذلك.. بل إنّه تعمّد جلب ذلك الفستان كآخر أمل له في التّأكّد من حبّها له.. وها هي ذي تخيّب كلّ آماله.. لم يكن هو ينتظر منها أن توافق

مباشرة على الزّواج بعد أسبوع لكنّه لم يكن يتخيّل كذلك ردّة فعلها تلك.. ردّة فعل تصرخ أنّ الفتاة ترفضه رفضا تامّا لا رجعة فيه.. وقف مذهولا أمام تصرّفها ولم يدر ما يفعل..

* * *

أغلقت آلين الباب بإحكام وارتمت على الفراش تنتحب.. لم يكن سبب حزنها يقتصر على ما كان الجميع يظنّه.. صحيح أنّها كانت تؤجّل حكاية زواجها من جورج بل كانت تفكّر في إلغائها.. صحيح أنّها لم تكن تطيق مجرّد التّفكير في مسألة ارتباطها به.. صحيح أنّ ذلك الفستان الأبيض هو بمثابة الإشارة الحمراء الّتي بدأت تومض معلنة قُرب حلول الأجل.. صحيح أنّ جورج وضعها أمام الأمر المقضيّ عندما حدّد تاريخ الزّواج دون طلب رأيها.. صحيح أنّها وجدت نفسها في عيد ميلادها ذاك كدمية متحرّكة يلعب بها الكلّ وهي صامتة ومستسلمة.. لكنّ ما فجّر أحزانها وزاد همومها هو عثورها صباحا على جوزيف.. لو لم يكن في حياتها غير جورج لربّما قبلت به زوجا لها عن مضض.. لكنّها الآن وبعد تعرّفها على أحمد وبعد أن عرفت حقيقته بات من المستحيل تركه لأجل ذاك المتعجرف.. كانت المسكينة تبكي وتقول في صوت متقطّع «لماذا يا ربّ؟ لماذا تضعني في هذا الامتحان العسير؟ لماذا لا أتزوّج جوزيف وأحقّق سعادتي؟ لماذا أظلّ أسيرة مخاوفي ورهبتي من أن يأتي الغد المجهول بكارثة جديدة تغطّي أكثر فأكثر أملي في الحياة؟ كلّما رفعت رأسي قليلا عن سطح الماء إلاّ وأعادتني الأمواج إلى أعماق اليمّ ثانية.. إنّي أحسّ أنّني أغرق في مأساة لا قرار لها.. أنّني أختنق.. في نفس اليوم الّذي أجد فيه من سيقاسمني الحياة بحلوها ومرّها.. يطلب منّي هو ذاته أن أخفي الأمر.. ويفاجئني الآخر بأنّنا سنتزوّج في الأسبوع المقبل.. يا لها من سخرية! »

قالت هذه العبارة وانفجرت ضاحكة والدّموع تنهمر من عينيها.. وعندها طُرِقَ الباب فارتعدت فرائصها ونطقت وهي ترتجف رعبا:

- من؟
- أنا جوزفين.. افتحي يا آلين.. أرجوك..

قامت الفتاة من فورها.. فتحت الباب.. وعندما دخلت جوزفين أغلقته آلين مسرعة وهي تقول:

- لِمَ أتيت يا خائنة؟
- أنا؟
- كنتِ ولا شكّ تعرفين ما احتواه الصّندوق..
- أقسم لكِ يا عزيزتي أنّني فوجئت مثلكِ تماما.. هل يُعقل أن أعرف شيئا كهذا وأخفيه عنكِ؟ صحيح أنّني أخت جورج لكنّك تعلمين أنّني أحبّك أكثر منه.. تأكّدي أنّي لا يمكن أن أخدعكِ يوما..

كانت جوزفين تتكلّم بصدق وشفافيّة وبراءة لا مثيل لها.. لذلك ما إن قالت هذه الكلمات حتّى هدأت آلين وارتمت في حضن ابنة خالتها وهي تقول معترفة بصوت باكٍ:

- أنا لا أحبّ جورج.. لا أريد أن أتزوّجه.. افهموني يا ناس.. قدّروا إحساسي.. قدّروا مشاعري.. لا يمكن أن أكون لجورج.. لو تزوّجته سأنتحر قبل أن يجمعنا سقف واحد.. أنا لن أكون لغير..

وصمتت آلين.. أدركت أنّ انفعالها قد قادها إلى زلّة لسان وقعت فيها من فرط تفكيرها فيه.. عندها نظرت جوزفين إليها ووضعت عينيها في عيني الفتاة الّتي كان وجهها مبتلاّ وعيناها تبحثان عن ملاذ للفرار من المواجهة:

- لغير من؟ أ مازلتِ تفكّرين في ذلك الفتى المسلم؟
- أجل.. لقد كنتُ معه منذ الصّباح..
- كنتِ معه؟ يا لشجاعتكِ النّادرة!
- حبّي له هو ما زرع فيّ هذه الشّجاعة يا جوزفين..

* * *

ترك أحمد أمّه على السّرير حتّى تهدأ قليلا ثمّ خطا بضع خطوات إلى غرفته.. دفع بابها ودخلها وذهنه مكتظّ بمشاكل لا يبدو لها في الأفق حلّ.. جلس على مكتبه.. ألقى نظرة على

صورة أخته الصّغيرة الّتي راحت شهيدة الحرب الّتي تطحن كلّ يوم بين أضراسها ابنا من أبناء البلد.. كانت الصّورة تنتحي ركنا من المكتب.. أمسكها بين يديه وأخذ يحدّق بها.. مرّ أمامه شريط دخول والده يومها وبين يديه كانت الفتاة مفارقة الحياة.. مرّت أمامه المشاهد وكأنّ ما حدث كان البارحة.. تذكّر ابتسامتها البريئة وضحكتها رائعة الرّنّة.. تذكّر الحبّ الّذي كانت تكنّه له.. تذكّر جمالها وطفولتها.. تذكّر انتظارها له كلّ يوم حتّى يعود مع والده من المدرسة.. تذكّر صوتها.. نظراتها.. حركاتها.. تذكّر كلّ هذا فنزلت من عينه دمعة حنين وشوق لتلك الأيّام الّتي لن تعود.. تبعتها دمعة ثانية وثالثة حتّى غطّت عبراته بلّور الإطار المحيط بالصّورة.. أحسّ عندها بذات الشّعور الّذي أحسّه منذ عشر سنوات.. أحسّ بمرارة ووحدة وفراغ.. أحسّ بألم فضيع ومعاناة لا توصف.. أحسّ بأنّ أولئك الّذين يعدّهم أهله الحقيقيّين ليسوا إلاّ من حرموه من قبل من أعزّ النّاس على قلبه.. أخته وصديقه عبد الله الّذي خطفته رصاصة الصّهيون وهو ما يزال في ريعان شبابه..

غادر أحمد غرفته.. أخذت رجلاه تقودانه نحو حجرة آمنة.. فتح الباب.. ونظر إلى الفراش فوجده ممهّدا كما تركته المسكينة قبل أن تفارقهم.. انحنى قليلا وأخذ دميتها بين يديه.. ثمّ جلس على الفراش ووضع جبينه على كفّ يده اليسرى وانفجر باكيا.. ذكر حينما أهداها تلك الدّمية في عيد ميلادها الخامس.. يومها فرحت بها كثيرا.. وقالت له والسّرور يغمرها:

- سأضعها بجانبي في الفراش.. ستنام معي كلّ ليلة.. لا بدّ أنّها تخشى النّوم وحدها..

ومن وسط دموعه أخذ يتمتم «ها هي ذي تنام منذ عشر سنوات وحيدة.. لماذا تركتِها وذهبتِ للنّوم في ذلك الظّلام يا أختاه؟».. أعاد تلك الدّمية إلى مكانها ووقف ملقيا نظرة أخرى على الغرفة وكأنّه يزورها لآخر مرّة.. ثمّ غادرها وأعاد غلق

الباب.. رفع بصره من الأرض فوجد أمّه واقفة أمامه ترنو إليه باستطلاع واستغراب فسبقها بالكلام قائلا:
- لا يحتاج الأمر إلى تفكير طويل.. غدا سأقابل آلين..
- وماذا ستقول لها؟
- سأقول لها أنّني لا أملك أهلا غيرك يا أمّاه.. أنّني فلسطينيّ.. أنّني مسلم.. أنّني لن أتنكّر أبدا لمن ربّوني وعلّموني معنى الحبّ والنّضال والوطن.. أنّني ابن هذا البلد ولن أغادره ولو وضعوا على رقبتي سيفا مسنونا.. أنّني ابن المرأة الّتي ضحّت بكلّ شيء من أجلي ووهبتني عطفها وحنانها ولن أتركها ولو كلّفني ذلك حياتي..

قال الفتى هذا الكلام وبصوته نبرة مختنقة فأسرعت زينب إليه تحتضنه ودموعها تنزل مدرارا:
- كنتُ متأكّدة يا بنيّ من أنّك ستقول هذا.. لم يخِب ظنّي فيكَ أبدا.. والآن فقط أدركتُ أنّي حقّا أنشأت رجلا..
- أنت أنجبتِ رجلا..
- الآن فقط اطمأنّ قلبي عليك..
- هل تسمحين لي الآن إذن بأن أطمئنّ أنا الآخر على قلبي؟
- كيف؟
- سأتوضّأ وأصلّي العشاء..
- اذهب يا بنيّ أنار الله طريقكَ وأرشدك إلى سواء السّبيل..

وعندما همّ بالانصراف استوقفته قائلة:
- لقد تركتُ لك الحليب في المطبخ.. لا تنس تناول سحورك..
- حاضر يا أعزّ النّاس..

* * *

وأسفر الصّبح.. استعدّ أحمد لمغادرة البيت وهو متلهّف لملاقاة آلين.. قبّل جبين أمّه وقصد المكان المعتاد.. عندما وصل لم يجدها في انتظاره كما اتّفقا.. وبينما هو كذلك إذ بها

تأتي مسرعة وهي تلتفت وراءها تارة وتهرول أخرى.. وعندما وصلت إليه قالت له وهي تحاول التقاط أنفاسها:

- هيّا نبتعد من هنا..
- ماذا في الأمر؟
- أحسّ أنّ أحدهم يتبعني.. هيّا بسرعة..

شعر أحمد بصدق كلامها وبالخطر الّذي قد يتعرّضان له لو تردّدا أكثر في الابتعاد عن ذاك المكان.. فأخذها وقصد السّوق وهو يقول لها:

- هناك سيساعدنا الاكتظاظ على الاختفاء عن العيون..

أخذا يركضان وعندما وصلا انتحيا ركنا قصيّا وجلسا وعندها بادرت آلين بالقول:

- ليس لديّ متّسع من الوقت اليوم كي أبقى معك..
- لِمَ؟ بالمناسبة ما حكاية الشّخص الّذي يتبعكِ؟
- جورج.. أحسّ أن لن يهدأ له بال حتّى يصل إلى مراده..
- الزّواج بكِ؟
- أجل..

ثمّ ابتسمت في سخرية..

- البارحة.. جلب لي فستان الزّفاف كهديّة لعيد ميلادي..
- فستان زفاف؟
- وقرّر أن نتزوّج في الأسبوع المقبل..
- أنتِ وهو؟
- وهل سيقرّر يعني موعد زواجي بكَ أنت؟
- أعذريني ولكن.. هذا أمر..
- لا يصدّق أ ليس كذلك؟ إنّه الأمر الواقع وعليّ أن أقبل به رغما عن أنفي..
- ماذا تقصدين؟
- إذا لم تبادر أنت طبعا بفعل أيّ شيء للوقوف في وجهه..
- شيء مثل ماذا؟

- عجبا.. أ لست أخاه ويمكنك التّفاهم معه يا جوزيف؟
- آلين.. أرجوك.. أنا لستُ جوزيف.. أنا أحمد.. جوزيف انتهى وانتهت حكايته منذ سبع عشرة سنة.. وجورج ليس أخي.. وهذا ما أتيت اليوم لأقوله لكِ..
- هل أفهم من كلامك أنّكَ سألت والدتك ونفت ما قلته لكَ؟
- على العكس تماما، أمّي أكّدت كلّ كلمة قلتها لي، لكنّ الحقيقة هو أنّني لا أريد أن أكون منكم.. أريد أن أبقى ابن زينب وعبد السّلام.. في بيتهما عرفت طعم السّعادة رغم الألم الّذي نعيشه في بلدنا ورغم افتقادنا كلّ يوم لأغلى النّاس على قلوبنا.. في بيتهما عرفت طعم الأمان رغم الحرب الّتي لا تنفكّ يوما ترعبنا وتقضّ مضاجعنا.. في بيتهما عرفت معنى الشّجاعة رغم الخوف الّذي يحيط بنا من كلّ جانب.. رغم الخطر الّذي يتربّص بنا في كلّ دقيقة نعيشها من حياتنا.. في بيتهما عرفت معنى الحبّ رغم أنّ الأعداء لم يتركوا لنا قلبا.. رغم أنّ الحياة علّمتنا القسوة وحجّرت أفئدتنا.. هل تعرفين معنى أن يتمزّق قلب الإنسان بين أصله ونشأته؟ هل تعرفين إحساس الإنسان الّذي يرى أمام عينيه حقيقته المرّة تطعن وهمه الجميل؟ أمسه يقتل يومه.. ماضيه يغتال حاضره.. إنسان ينهض فجأة ذات صباح ليجد نفسه قد تحوّل من ذاك المناضل المدافع عن الوطن إلى واحد من ضمن أولئك الّذين كان يحاربهم ليلا نهارا.. قد مُسِخ إلى وحش كاسر يدوس تحت قدميه كلّ من يعترض طريقه؟ لا أبدا.. لن أكون كذلك.. لن أتنكّر لمن ربّوني واعتبروني ابنا لهم ولم يجعلوني يوما أحسّ أنّي غريب عنهم.. حتّى بعد أن عرفت أمّي أصلي لم تتخلّ عنّي.. حتّى بعد أن عرفت أنّي أنتمي لأولئك الّذين أدموا روحها وجفّفوا دموعها وسلبوها الفرحة والنّوم من عينيها.. وقتّلوا أهلها وابنتها وجعلوها تبكي فراق أحبّتها كلّ يوم بدل المرّة ألف مرّة.. رغم كلّ شيء لم تتخلّ عنّي.. لن أتنكّر للبلد الّذي عشت به وأحببت أهله وألفت طلقات البارود فيه

وأصوات القنابل والدّبّابات.. لن أتنكّر للإسلام الّذي أنعم الله به عليّ.. لن أترك الدّين الّذي أنار طريقي ورسم سبيلي وطهّر روحي.. اعتبري جوزيف مات منذ اختفى عن الأنظار.. الشّخص الّذي يجلس أمامك الآن هو أحمد عبد السّلام.. فلسطيني.. أمّه زينب ودينه الإسلام..

- أ هذا قرارك الأخير؟

- أجل.. رغم أنّي لا أخفي عنكِ أنّني شعرت البارحة بأنّي منقسم إلى نصفين.. نصف أرفضه وأريد قتله ونصف أحبّه ولا أستطيع العيش بدونه..

- وأين أنا من هذا التّقسيم؟

- أنت؟ أنت في المنتصف.. أرفض أصلكِ وأحبّ قلبكِ الّذي يشبه إلى حدّ بعيد قلبنا..

- وأخوك؟ وأبوك؟ وأختك؟

- أختي ماتت منذ عشر سنوات.. أمّا أخي فأنا لا..

- أنا أقصد جوزفين وجورج يا.. يا..

- أحمد..

- لماذا..

- اسمعي يا آلين.. هذا الموضوع قد انتهى.. أم أنّك كنتِ تعتقدين أنّني يمكن أن أعترف بوجود أخ يكره أهلي ويحاربهم؟ أ لم يخطر ببالك يوما أنّه يمكن أن يكون قاتل آمنة أختي؟ أو صاحب الرّشاش الّذي انطلقت منه الرّصاصة الّتي قضت على أعزّ أصدقائي؟ حتّى وإن كان بريئا ممّا اتّهمته به فهو يبقى دائما حليفا لأعدائي.. يبقى دائما عدوّي.. هل تفهمين؟

- وأنا؟ وجوزفين؟ ما ذنبنا؟

- لا تهمّني جوزفين.. أخوها جوزيف مات منذ سنوات.. مات حتّى قبل أن تبصر عينها النّور.. لن يفيدها أن تعرف الحقيقة.. أظنّ أنّه من السّذاجة الآن أن أذهب إليها وأسلّم عليها أو أن أرتمي في حضن الأمّ الّتي نسيتني وصارت تجهل شكلي

وأقول لها "أنا ابنكِ الّذي أضعته منذ عشرين سنة يا أمّي العزيزة"..

- أمّك لم تنسك.. ظلّت تذكرك حتّى آخر لحظة في حياتها.. كانت دائما ترسم لشكلك صورة في مخيّلتها.. وظلّت أمنيتها الوحيدة أن تراك.. ولم تتحقّق تلك الأمنية..

- هل تقصدين أنّها..

- فارقت الحياة منذ سنة.. وآخر كلمة قالتها يومها "لو عثرتم على جوزيف قولوا له أنّني انتظرته كثيرا ولكنّ غيابه طال وما عدتُ قادرة على الانتظار.."

قالت الفتاة هذه الكلمة ونزلت على خدّها دمعة فسارعت بمسحها بكفّها.. فقال هو نادما على الحماقة الّتي تفوّه بها:

- رحمها الله.. أنا آسف يا آلين.. يبدو أنّك كنتِ تحبّين خالتك كثيرا..

- أمّي تقول لي دائما أنّني أشبهها في طيبة قلبي وعطفي..

- المهمّ الآن أنت يا آلين، يجب أن تتّخذي قرارا محدّدا، إمّا أن نتزوّج أو تعودي إلى خطيبك الّذي ينتظركِ على أحرّ من الجمر..

* * *

أسرعت الفتاة إلي البيت وهي تأمل ألاّ تجده في انتظارها.. وقفت على العتبة تستردّ أنفاسها.. ثمّ وضعت المفتاح في قفل الباب.. وقبل أن تديره فُتِح الباب ببطئ وأطلّ من ورائه رأس جوزفين وهي تهمس:

- لقد حاولت أن أحتجّ له بـ..

ولم تكمل الفتاة حديثها.. قاطعها صوت جورج من بهو الدّار صارخا:

- أين كنتِ يا.. يا زوجة المستقبل؟

- كـ.. كنتُ..

فقاطعتها جوزفين متداركة الموقف وموجّهة كلامها إلى جورج:

- أ لم أقل لكَ أنّها ذهبت لزيارة صديقتها كاترين؟
فصرخ هو في وجه جوزفين وهو يكظم غيظه بين أسنانه:
- أصمتي أنتِ.. من أذن لكِ بالكلام؟
- أ.. أجل.. كلام جوزفين صحيح.. كنتُ عند كاترين.. لم أكن أظنّ أنّي سأتأخّر.. هي الّتي ظلّت تلحّ عليّ أن أتغدّى معها..

وعندها، ابتسم جورج ابتسامة لم تخف بريق الخبث والدّهاء الّذي كان يلمع في عينيه، ثمّ قال في هدوء بارد:
- حقّا؟ إن كان الأمر كذلك، كان عليك إذن أن تجهّزي طعام الغداء قبل أن تذهبي إلى.. إلى بيت صديقتكِ..
- معكَ حقّ يا جورج.. لكنّني كنتُ أظنّك ستتغدّى مع عمّي داود في الورشة.. وإن يكن.. لازال الوقت مبكّرا.. لحظات فقط ويكون كلّ شيء جاهزا..
- حسنا إذن.. أنا ذاهب إلى غرفتي لأرتاح قليلا.. بينما تتمّين أنتِ إعداد الطّعام..

انصرف جورج فتنفّست جوزفين الصّعداء وهي تضع راحتها على جيدها وكأنّ حملا كبيرا انزاح عن قلبها، ثمّ رنت إلى ابنة خالتها الّتي كان نظرها شاردا وفكرها ساهما حتّى كأنّها لم تشعر بمغادرة ذاك البغيض الّذي كان ينشر الرّعب أينما حلّ، فقالت لها وهي تمرّر كفّها أمام عينيْ الفتاة:
- هاي.. أنتِ.. أين سرحتِ؟

فأجابت آلين وعيناها ما زالتا عالقتين بباب غرفة جورج المغلق:
- جورج يا جوزفين..
- ما به؟
- لم تعجبني ردّة فعله..
- ردّة فعله؟ على العكس تماما، كان هادئا، لم تتشنّج أعصابه كعادته، هل كانت ستعجبك ردّة فعله لو ضربك مثلا؟
- فعلا.. هدوؤه أثار قلقي، ليس من عادته أبدا أن يتصرّف بذلك البرود خاصّة في موقف كهذا..

- لم يصدّقني حين قلتُ له أنّكِ ذاهبة إلى كاترين، كان عصبيّا جدّا، لكنّه صدّقكِ أنتِ بكلّ سهولة، إنّه الدّليل القاطع على حبّه الشّديد لكِ..
- بل هو الدّليل على العاصفة الّتي تعقب السّكون..
- بالمناسبة.. أين كنتِ؟ عندما سألتك قبل مغادرتك البيت عن مقصدك قُلتِ لي أنّك ذاهبة في مشوار قصير وأنّك لن تتأخّري، لكنّك تأخّرت..
- لقد نسيتُ الوقت معه..
- من؟
- هيّا لندخل إلى المطبخ..

ثمّ أردفت هامسة بأذن الفتاة «قد يسمعنا..»

هرولتا إلى المطبخ وأغلقتا بابه، أخذت آلين تغسل الخضر وهي تقول:

- اليوم تقابلنا..
- أحمد ثانية؟
- ثانية؟ قولي تاسعة وعاشرة..
- يا ويحكِ..
- إنّه مصرّ على أن أعيش مع عائلته وأعتنق دينه بعد زواجنا.. في الحقيقة وافقته على ذلك في البداية لكنّني الآن وأنا واقفة أمام الأمر الواقع.. الحقيقة وجدتُ الأمر عسيرا..
- عسيرا؟ قولي مستحيلا.. كيف يسهل عليك تغيير دينكِ؟ وعن أيّ زواج تتحدّثين؟ أ نسيتِ جورج؟
- هذه هي المشكلة.. أحمد خيّرني بين أن أرضخ لجورج أو أن أعلمه غدا بقبولي لفكرة الزّواج به..
- حتّى وإن قبلتِ الزّواج بأحمد.. لن تستطيعا الفرار من جورج خاصّة لو عرف أنّك تزوّجت أحد أعدائه..
- أنا لستُ خائفة على نفسي.. أنا خائفة على أحمد.. أظنّني سأضحّي بحبّي له وسعادتي من أجل أن يعيش.. تكفيه المخاطر الّتي يواجهها كلّ يوم..
- ومتى ستعلمينه بقراركِ هذا؟

- كنتُ أودّ مقابلته غدا.. لكن يبدو أنّ جورج يتربّص بي لذلك أرجّح أنّي لن أستطيع الخروج من البيت خلال هاذين اليومين على الأقلّ..

- كلاّ، يمكنك أن تذهبي غدا إلى حيث تشائين، كلّهم سيقصدون حائط المبكى، أ نسيت أنّها الذّكرى الأولى لوفاة أمّي؟

- وأنت؟ هل ستذهبين معهم؟

- أنتِ أيضا يجب عليكِ الذّهاب لكنّك ستتمارضين منذ اللّيلة حتّى يتسنّى لكِ المكوث بالبيت غدا وهكذا يمكنك الخروج لسويعة تعلمين فيها أحمد بقرارك وتعودين قبل أن يكتشف أحد شيئا..

- يا لكِ من ذكيّة! أتمنّى أن أتقن دوري وأن تنطلي الحيلة على جورج..

صارت جوزفين في قمّة السّعادة حينما علمت أنّ آلين قد عدلت أخيرا عن قرار ارتباطها بأحمد، بل أكثر من ذلك، حين تأكّدت من أنّ آلين ستوافق أخيرا على الزّواج بجورج، من أنّ آلين لن تكون ابنة خالتها فحسب بل ستصير كذلك زوجة أخيها!

* * *

تناول جورج طعام الغداء وغادر البيت متّجها صوب الورشة، اهتمّت جوزفين بتنظيف المطبخ ودخلت آلين إلى غرفتها لتنال قسطا من الرّاحة، لم تكن في الحقيقة ترغب في الرّاحة بل في الاختلاء بنفسها قليلا، جلست على الفراش، وضعت رأسها على الوسادة وأخذت تفكّر «المسكينة جوزفين لم تصدّق نفسها حينما علمت بأنّي سأقبل أخيرا بجورج زوجا لي.. كانت تودّ أن أكون زوجة أخيها ولم يخطر ببالها أنّني يمكن أن أكون زوجة أخيها دون أن أرتبط بجورج.. بل عندما أرتبط بجوزيف.. أقصد بأحمد.. إنّها طيّبة القلب كأمّها.. إنّها مؤمنة بأنّي لا بدّ أن أتعلّق بجورج بعد زواجي به.. هي لا تعلم أنّ جورج لا يحبّني.. بل يحبّ فقط امتلاكي.. أنّني بالنّسبة إليه

رهان قد يدفع عمره حتّى يكسبه.. وعندما يصير بين يديه لن يتردّد في رميه عند أوّل سلّة قمامة تعترضه.. أنّني مجرّد تحدٍّ قبِلَه على نفسه مذ كان ابن عشرة أعوام.. ويوم يحقّقه سيصير من الماضي وسيسعى بعده إلى البحث عن غيره.. هل من المعقول أن أدفن نفسي بالحياة مقابل ألاّ تتعرّض حياة أحمد للخطر؟ هل أبني تعاستي مع جورج على أنقاض سعادتي مع أحمد فقط لأنّني أخاف ممّا يمكن أن يفعله جورج؟ الموت أهون عليّ من ترك أحمد من أجل جورج.. والعذاب أهون عليّ من أن يجلب لنا حبّي لأحمد الشّرّ المستطير.. ماذا أفعل يا ربّي؟ ماذا أفعل؟»

ظلّت آلين على حالتها تلك حتّى غلبها النّعاس فنامت ولم تستيقظ إلاّ على صوت جوزفين وهي تقول لجورج:

- آلين؟ إنّها في غرفتها.. بعد أن غادرْتَنا في المساء انتابها صداع كبير.. قدّمتُ لها بعض الحشائش فدخلت غرفتها ونامت.. إنّها متعبة يا أخي.. لا توقظها أرجوك..

- حسنا.. سأدخل لأطمئنّ عليها فقط..

فهمت آلين أنّ جوزفين كانت تمهّد الأرضيّة لخطّة الغد، فما إن سمعت صوت خطوات جورج تقترب من الغرفة حتّى سارعت بإغماض عينيها متظاهرة بأنّها نائمة.. فتح هو الباب.. أطلّ برأسه قليلا ثمّ قال بصوت خافت:

- فعلا إنّها لا تزال نائمة..

ثمّ أغلق الباب وقال لجوزفين:

- ألا تعتقدين أنّها بحاجة لدكتور؟

- كلاّ.. لا أظنّ ذلك.. إنّه مجرّد صداع وسيزول بالتّأكيد..

عندها أومأ جورج برأسه مباركا كلامها ثمّ اتّجه نحو غرفة الجلوس فدلفت هي إلى حجرة آلين وأغلقت الباب سريعا ثمّ جلست بجانب الفتاة الممدّدة على السّرير وقالت لها وهي تهمزها:

- يا لكِ من ممثّلة بارعة.. انطلت عليه الحيلة..

- لكنّني نمت فعلا.. أ تعلمين ماذا حلمت؟
- ماذا؟ أخبريني..
- رأيت أحمد واقفا بعيدا عنّي وهو يمدّ لي يديه وأنا الأخرى أمدّ يديّ ولا أستطيع الوصول إليه.. كان يرتدي كسوة بيضاء وكنتُ أنا أرتدي فستانا أبيض.. كأنّه فستان زفاف.. حولنا كانت النّسوة يزغردن.. وبيننا وقف جورج يضحك ضحكة هستيريّة وهو يرتدي ثوبا أسود.. أزعجني هذا الكابوس كثيرا.. أنا خائفة يا جوزفين..
- لا تجزعي يا عزيزتي، الحلم حسب ما قاله أحد العلماء هو الملاذ الّذي يهرب إليه الإنسان من واقعه المرّ، يعني تشخيصا لحالتك، أنتِ كنتِ تودّين الزّواج بأحمد، وجورج هو الحائل الوحيد دون ذلك، هل فهمت الآن؟
- حسنا يا حضرة الدّكتورة، هلاّ ذهبت الآن وتركتني لأعود للنّوم؟
- أ لم تملّي النّوم بعد؟ لقد نمتِ طوال المساء، أ لن تتعشّي معنا؟
- لا أريد.. أطفئي النّور لو سمحت..

* * *

أشرقت شمس صباح اليوم التّالي.. دبّت الحركة في البيت.. استيقظ الجميع إلاّ آلين.. ظلّت ممدّدة في الفراش تفكّر وتفكّر في ما ستقوله لأحمد.. وبعد تفكير طويل لم تستطع اتّخاذ قرار محدّد.. نظرت إلى السّاعة فوجدتها تدقّ التّاسعة صباحا وعندها سمعت أمّها تقول لجوزفين:
- أين آلين؟ أ مازالت نائمة؟
- أظنّ ذلك يا خالة..
- هذا لا يعقل، هي ما تزال تغطّ في النّعاس بينما نحن جاهزون للمغادرة، هل سنبقى الآن في انتظارها؟
- أخالها لن تذهب معنا.. البارحة كانت المسكينة تعاني صداعا شديدا.. أ ليس من الأفضل أن نتركها ترتاح؟

- أنا لا أعرف شيئا، اسألي أخاك.. أنا سأجلس هنا بانتظار ما ستقرّرونه، حقيقة لم أعد أفهم شيئا في هذا البيت..

قالت هذه الكلمة واتّخذت أريكة قرب باب الدّار مقعدا لها، أمّا جوزفين فاتّجهت نحو غرفة آلين، فتحت الباب وهمست:

- آلين.. أ مازلتِ نائمة؟
- كلاّ.. لم يغمض لي جفن منذ تركتني البارحة..
- المهمّ الآن.. سنتمّ خطّتنا أ ليس كذلك؟
- طبعا..
- حسنا إذن.. ابقي في الفراش كما أنت..

وما إن فتحت باب الغرفة حتّى وجدت أمامها جورج متسمّرا فارتبكت قليلا من فرط المفاجأة ثمّ تمالكت نفسها وقالت له بهدوء مشيرة بإبهامها إلى آلين:

- إنّها ما تزال متعبة.. الأرجح أنّها لن تستطيع السّير كثيرا..

فأجابها جورج مصطنعا البرود واللاّمبالاة وهو يعقد ربطة عنقه أمام المرآة المعلّقة بجانب باب الحجرة:

- إن كانت غير قادرة فعلا على الذّهاب معنا، فلْتمكث هنا.. على أيّ حال نحن لن نتأخّر كثيرا، قد نعود قبل حلول موعد الغداء.. وأنتِ؟ هل ستبقيْن هنا أيضا؟
- كما تريدون..
- أنا أفضّل أن تبقيْ معها.. ربّما احتاجت شيئا..
- حسنا..

وغادر الجميع البيت ما عدا آلين وجوزفين الّتي سارعت إلى حجرة ابنة خالتها لتبشّرها بنجاح الخطّة ولتحثّها على الإسراع في الاستعداد للذّهاب إلى موعدها مع أحمد.. وماهي إلاّ ربع ساعة حتّى كانت آلين واقفة أمام باب الدّار تهمّ بفتحه للمغادرة، فاستوقفتها جوزفين وهي تقول لها:

- أرجوك يا آلين لا تتأخّري.. إن وصل جورج ولم يجدكِ فلن أجد حجّة تقنعه كما في السّابق.. أخبري أحمد بما

تريدين قوله في بضع كلمات وعودي أدراجكِ بسرعة.. أرجوكِ..

- لا تخافي يا عزيزتي..

فتحت الباب فلفحها هواء بارد، أغلقت معطفها وانطلقت إلى المكان المعتاد، وفي الطّريق، أخذت تقول في نفسها «مسكينة جوزفين.. إنّها تحسب أنّ قطع علاقتي بأحمد للأبد يمكن أن يتلخّص في بضع عبارات ألقيها على مسامعه ثمّ أعود في الحين لأرتمي في أحضان البؤس والشّقاء مع أخيها العزيز جورج! ما بيني وبين أحمد مستحيل أن أستطيع التّعبير عنه ولو بكلّ ما في اللّغة من ألفاظ.. ولن يسهل عليّ قطعه أبدا في لحظات.. ما بيننا لا يمكن أن يقطعه إلاّ الموت.. وما جورج إلاّ الموت نفسه..»

وصلت الفتاة فوجدت أحمد واقفا في انتظارها.. وعندما رآها هرع إليها وهو يقول:

- لِمَ تأخّرت؟
- لم أقدر على الخروج من المنزل.. جورج يحاصرني..
- المهمّ الآن هل فكّرت مليّا في اقتراحي؟
- قبل كلّ شيء دعنا نبتعد عن هذا المكان..
- حسنا.. دعينا نتمشّى قليلا حتّى نصل إلى هناك..

ثمّ أردف قائلا في لهفة:

- هيّا أعلميني بقرارك..
- حقيقة.. لا أعرف ما أقول لك..
- قولي نعم أو لا..
- نعم أو لا..
- كفاكِ هزلا يا آلين..
- أنا لا أمزح.. أنا حقّا لا أعرف إن كنتُ موافقة أم لا..
- أنا حقّا لم أعد أفهمك يا آلين..
- أنا أريد أن أبقى معك دائما..
- وما الّذي يمنعك؟ الدّين؟

- أنا لا أريد للدّين أن يقف حاجزا بيني وبينك.. كما لا أريد للأصل أن يكون حجر العثرة الّذي يعترض طريق سعادتنا..
- ماذا إذن؟
- خوفي عليك هو السّبب..
- من ماذا؟
- بل قل ممّن.. من جورج..
فضحك أحمد بسخرية واضحة وهو يقول:
- يا لهذا الجورج الّذي يشبه عفريت العلبة.. كلّما دار بيني وبينك حوار إلاّ وانفجر اسمه في وجهي.. بالله عليك قولي لي.. هل هو إنس أم جان؟ هل هو بشر أم وحش؟
- هو وحش! معك حقّ.. أنت لا تعرفه.. من يراك ويراه لا يصدّق أنّكما..
عندها تغيّرت ملامح أحمد فأسرعت هي تعتذر:
- أنا آسفة..
- لم أفهم إلى الآن سبب خوفكِ عليّ..
- جورج لن يتركنا نعيش بسلام.. حسنا.. أ لا يمكننا أن نتزوّج ونهرب من هنا؟ نعود إلى مصر..
- هذا مستحيل.. أوّلا لا يمكنني أن أفرّ وأترك والدتي لوحدها.. وثانيا وهو الأهمّ.. أنا لم أتعوّد أبدا الفرار من المواجهة.. لو كنتُ أودّ ذلك لفررت منذ عشر سنوات.. حين قتلوا أختي آمنة.. حينما قتلوا أمام عيني البراءة والجمال.. وشوّهوا كلّ المعاني الحلوة الّتي يحملها قلبي.. لو كنتُ أودّ ذلك لفررت منذ خمس سنوات.. حينما اغتالوا صديقي عبد الله.. لم أهرب منهم بل واجهتهم رفقة زملائي وإخواني من أبناء الوطن.. وها نحن نناضل حتّى ننتصر عليهم وننتقم من كلّ واحد منهم حرمنا أعزّ الأشياء على نفوسنا..
ثمّ صمت قليلا حين رأى امتقاع وجه الفتاة فأردف قائلا:

- معذرة.. أنا لم أنس أنّني أتحدّث عن أهلك.. لكنّني لم أقصد جرح شعورك لأنّني لا أعتبرك منهم.. أنا أرى فيك صورة أختي آمنة..
- أعلم ذلك ولكنّني لا أريد أن أضعك في معركة لا قِبَلَ لك بها.. هل ترى ذلك الجدار البعيد هناك؟
- هل تقصدين الجدار الفاصل؟
- أجل.. قريبا سيصل إلى هنا.. لو لم نسارع بالارتباط سيفصل هذا الجدار بيننا إلى الأبد.. سيقف حاجزا بين بيتي وبيتك.. أ لم تلاحظ ذلك؟
- بلى..
- ذاك الجدار يشبه جورج إلى حدّ بعيد.. سيحرمنا من بعض إلى الأبد..
- لن أدعه يفعل ذلك.. حتّى وإن لم أكن أحبّك فواجب الشّهامة يدفعني إلى أن أحميك من ذاك الشّرّير..
- ماذا تقصد؟
- انسيْ أمر جورج.. لو لم يكن موجودا هل كنتِ ستقبلين بي زوجا وستعتنقين ديني وستنضمّين إلى عائلتي؟
- يمكنني أن أقبل بكَ زوجا وأن أنضمّ إلى عائلتك دون أن أعتنق الإسلام..
- ماذا؟
- أجل يا أحمد.. أنا يهوديّة ولكنّي أحمل قلبا وإحساسا وأومن باللّه.. فلِم أغيّر ديني؟
- لم يكن هذا كلامَكِ منذ البداية..
- أعلم ولكنّ كلامي اليوم جاء نتيجة تفكير عميق.. ليس من السّهل على المرء تغيير دينه.. أنت مثلا رفضتَ أن تعود لليهوديّة رغم أنّها دينك الأصليّ.. ورغم أنّ عودتك إلى أسرتنا كانت ستسهّل زواجنا..
- لا مجال للمقارنة بيني وبينك..
- ليس من العيب أن أكون يهوديّة.. أنا لا أؤذي أحدا.. ولن يغيّر انتمائي للإسلام من الأمر شيئا..

- بلى سيغيّر الكثير.. أمّي لن توافق على زواجنا.. أنسيتِ أنّه شرطها الوحيد؟
- يبدو لي أنّه شرط تعجيزيّ..
- أ هذه هي النّهاية يا آلين؟
- كلاّ يا أحمد.. أنا أحبّك ولا أستطيع العيش من دونك..
- خسارة.. ها أنتِ ذا تضعين الدّين حائلا بيننا..
- المشكلة أنّ أمّك تخلط الأمور.. أنا يهوديّة ولكنّي لستُ صهيونيّة.. أنا أحبّ النّاس والحياة والسّلام مثلكم تماما..
- أعرف.. لو لم أكن أعرف هذا لما أحببتكِ..

عندها أمسكته آلين من ذراعيه وقالت له برجاء:

- أقسم لك يا أحمد أنّي سأعمل ما في وسعي حتّى لا أخيّب ظنّك.. وسأثبت لوالدتك أنّي كفء لأكون كنّتها..

وعندها سُمع طلق عنيف.. وتدافعت الطّلقات من كلّ جانب.. إلتفت أحمد وراءه ثمّ وقف أمام آلين فاتحا ذراعيه محاولا حمايتها.. وتلقّى صدره الطّلقة.. ووقع أمامها.. قطّبت الفتاة حاجبيها ولم تستوعب ما حصل.. نزلت على ركبتيها وأخذت رأسه بين كفّيها وهي تُتمتم غير مصدّقة:

- أحمد.. أجبني يا أحمد..

ففتح عينيه بصعوبة ونطق وهو يلهث:

- لا تخافي يا آلين.. إنّها الشّهادة الّتي طالما تمنّيتها.. أشعر بالفرحة.. إنّهم يقتلوننا ويظنّون أنّهم ينتصرون.. نحن المنتصرون يا آمنة.. أنا قادم يا عبد الله..
- أحمد..
- أسلمي يا آلين.. حتّى نلتقي في الجنّة بإذن الله..
- أحمد..
- أمّي يا آلين.. لا تتركيها وحيدة.. أبلغيها سلامي.. واعتني بها.. الحمد لله.. الحمد لله.. أشهد أن لا اله إلاّ الله وأشهد أنّ محمّدا رسول الله..

وأغمض عينيه إلى الأبد والابتسامة تعلو شفتيه.. أخذت تهزّه وتصرخ وتبكي، ومن بين دموعها خيّل لها أنّها رأت

شبح جورج يركض مبتعدا.. أغمضت عينيها برهة وكأنّها تحاول نسيان ما حدث.. ثمّ فتحتهما فوجدت نفسها محاطة بجمع غفير.. تقدّم أحدهم وأنهضها من مجلسها.. وتقدّم آخر وغطّى الشّهيد بعلم فلسطين.. ومن بعيد برزت زينب تخطو في تؤدة.. أخذت تشقّ صفوف النّاس.. اعتلى الحزن وجهها لكنّها لم تبكِ.. وصلت إلى ابنها.. انحنت وقبّلته على جبينه.. ثمّ وقفت أمام آلين.. فتقدّمت الفتاة ومدّت يدها إلى زينب.. فقطّبت المرأة حاجبيها محاوِلة معرفة هويّة الواقفة أمامها.. وضعت آلين الخاتم في يد زينب قائلة:

- أنا.. أنا سأنفّذ ما طلبه منّي أحمد.. لقد طلب منّي أن أبلغكِ سلامه.. وطلب منّي ألاّ أتخلّى عنكِ.. آلين ماتت كما مات جوزيف.. واليوم وُلدت آمنة.. أشهد أن.. أن لا إله إلاّ الله.. و.. وأشهد أنّ.. أنّ محمّدا رسول الله..

عندها ابتسمت زينب بحنان ثمّ وقفت بثبات ورفعت يدها إلى فمها وأطلقت زغرودة طويلة.. ربّما سمعها أحمد..

[كلّ يوم يولَد أحمد جديد.. القصّة متواصلة حتّى يستقلّ بلدنا]